امرأة من ندى

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي
تصميم الغلاف : سماح درويش

حسن إبراهيم الناصر

امرأة من ندى

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (2)
2013

إهداء..

إلى: الإبراهيمين الغاليين..

إبراهيم: والدي الذي
رباني على
عشق المعرفة.
وإبراهيم: ابني الذي
ربيته على
عشق الوطن.

الضائع

حـاول أن يجمـع قـوته لـيقول شـيئاً.. ارتـبك، هكـذا لسانه دائماً يخونه، جسده يرتعش وعيناه محمرتان، يدور حول نفسه، كالذين يخرجون من الحانات الليلية، ضاق ذرعاً بأشعة شمس الصباح، يمشي و هو يجرجر تعبه هارباً مـن الـضوء، تـتخطفه الاتجاهـات والأرصـفة، وفي الـنهاية وقف أمام لوحة سوداء كتب عليها بخط عريض: "مختار حي النهضة الجديد" غمغم: يبدو أن أشياء كثيرة تغافلنا وتـتجدد! لم تعـد الأمكـنة توحـي بالاطمئـنان، الأشـياء الجمـيلة تـضيع مـن دون أن نـشعر، لا بـد مـن الدخـول والـسؤال، دق الـباب بـأدب ملقـيا الـسلام، لم يـسمع جواباً، تابع: عفواً: مَن منكم المختار.. لقد ضاعت هويتي وتهت عن طريق بيتي، ولا أدري هل أنت مختار حيّنا.. أم أنـا اسـتيقظت في حـي أخـر، المهـم: أن هـناك شـرطياً

يلاحقني بجريمة.. لا أدري هل ارتكبتها أم لا ، ويتهمني بعض المارة بالجنون، يدعون أني أكلت وشربت ولم أدفع الثمن لصاحب المطعم، توقف قليلاً: ولكن الطلب الأكثر صعوبة يا سيدي المختار.. أنه يريد إثبات شخصيتي ويبدو أنني بلا هوية. نهض رجال ثلاثة بشوارب مفتولة، وبصوت واحد قالوا: "باطل". ابتسم، أقصد أنها ضاعت، صرخوا الثلاثة: ما هي التي ضاعت؟؟ ساخراً أجاب: الهوية يا قوم، قالوا ثانيةً بصوت واحد أيضاً: باطل تضيع هويتك وتأكل ولا تدفع وشرطي يلاحقك.. هل أنت مجنون؟ تقدم الشرطي قائلا: حضرة المختار هل تعرف هذا الرجل.. هل هو من أبناء الحي؟ مد المختار يده وسحب سجلاً كبيراً أسود، ومن دون أن ينظر إلى وجهه قال: اسمك واسم العائلة ورقم الخانة. ضحك الرجل.. لو كنت أعرف كل هذا.. ما كنتُ لأقف بين يديك. المختار موجهاً كلامه للشرطي.. هل أنا معلّم أهل الحي بخيط.. يمكن يكون ويمكن لا. تنحنح الرجل الأول فتل شاربيه وقال:

أين ومتى ضاعت هويتك يا شاطر؟

الرجل الثاني وقد بدا جاحظ العينين، أخذ نفساً من سيجارته نفخها في الهواء وقال: هل كنت في الحافلة أم كنت ماشياً؟

الرجل الثالث أنزل ساقاً عن أخرى وقال: كم مضى من الوقت وأنت تتنقل في شوارع المدينة من دون هوية. وتنتحل صفات وأسماء وتحتال على أصحاب المطاعم؟.

المختار قاطع الجميع حاسماً... اسمع جيداً، يوجد رجل عجوز وأمامه بسطة من الأوراق والطوابع يجلس أمام المبنى، دعه يكتب لك طلباً ويضع الطوابع المطلوبة، كي نرفعه مع التوقيع إلى آمر النفوس ليمنحوك هوية. وعليك أن تذهب برفقة الشرطي إلى المخفر لتقديم إفادة كيف ومتى وأين ضاعت الهوية، ولماذا تأخرت بإخبار المخفر، هذا أمر مخالف للقانون العام. الرجل هازئا: القانون يا جماعة. بتهكم قال: سمعت عنه الكثير ولكن لا أجد له أثراً في حياتي!. أشار المختار للشرطي بما يعني أن الرجل حتماً مجنون. ضحك الرجل حتى كاد يقع على قفاه.. يا سيدي بالمناسبة لا أملك ثمن الطوابع، ولا أعلم أين ضاعت هويتي ولا من أي جهة أتيت، ولا.. أين كنت. كل ما أذكره أني وجدت نفسي ملقى على الرصيف.. الجوع دفعني إلى بائع الفلافل، دخلت المطعم أكلت وشربت الشاي وحمدت الله، وحين طلبوا مني ثمن الطعام، لم أجد في جيوبي ما أدفعه، ولم أجد هويتي، عندئذٍ، انهالوا عليّ ضرباً وركلاً وشتماً، ثم جاء هذا الشرطي.. خفت

وركضت هارباً.. وها قد وصلنا أنا والشرطي معاً، هز المختار رأسه وقال: معقول أن تمشي بلا هوية ولا مال، ألا تعلم أنهم يبحثون عن لصوص في المدينة هاربين من القانون؟؟. استدار الرجل نصف دوره وقال: المدينة مليئة باللصوص.. ربما يكون واحد منكم، وأشار إلى رجل يدخن سيجاراً غليظاً وقد تنفخ خداه، واندلق كرشه.. قد يكون هذا المنتفخ. نهره الشرطي بعصاه: هيا رافقني وأنت صامت، وأنت يا مختار يجب أن ترافقنا لإثبات حالته، يبدو أن هذا الرجل قام بعمل معاد للحكومة الموقرة، وربما يكون هو أحد اللصوص الذين نبحث عنهم، يجب تقديمه بموجب القانون للمحكمة.. ومن حقه أن يجد محامياً للدفاع عن نفسه، أومأ بيده.. بما أن حكومتنا ديمقراطية تؤمن بالحقوق الإنسانية. ضحك الرجل وغمغم: يبدو أني نمت على الرصيف.. واستيقظت في "سويسرا "؟!. عفوا حضرت الشرطي، لم أرتكب مخالفة ضد.. حكومة تطعمنا وتعلمنا وتؤوينا وتحمينا و... سامحك الله.. هل أنا مجنون، في المخفر بدأت الأسئلة تنهال، مجموعة من المحققين يتبادلون الأسئلة والأدوار والكراسي، شعر بالغثيان والتعرق حين قرأ الشرطي المحضر قبل التوقيع... في أثناء دورية أمنية اعتيادية للشرطي أمين الوهدان بن

أمينة وعباس.. ألقى القبض على هذا الرجل المتنكر، يتنقل في شوارع المدينة وعلى أرصفتها بلا هوية ولا اسم ولا نقود، حاول خداع صبحي الحمصاني وتناول الطعام من دون أن يدفع ثمنه، لا شيء يملكه إلا قصاصات ورق؟ ويقول: بأن أحداً ما سرق.. هويته وماله واسمه، الشرطي يقرأ والرجل يضحك، فجأة أوقف الضحك وصار يبكي، طالباً من رئيس المخفر أن يسمح له بالجلوس كمواطن، أخرج أوراقاً وقلماً.. وبدأ يكتب: أنا محمود الحميدان، أتيت إلى هذه المدينة منذ زمان، هارباً من الفقر والحرمان، استطاع السيد محمود الجهلان وهو زوج خالتي أسمهان، يعمل مسؤولا في مديرة التنمية الريفية للبلدان، أن يؤمن لي عملاً في المصلحة العامة للنظافة، وبشهادة جميع من عملت بإمرتهم، كنت أقوم بعملي بهمة وثقة عالية.. وأنفذ أوامر رئيس المراقبة من دون تذمر أو بهتان، ولم أتأخر يوماً واحداً حتى ولو كنت متعباً أو جائعاً، وفي أحد الأيام جاء مدير عام المصلحة في جولة تفقدية يركب سيارة كبيرة ومعه مرافقان، حيث كنت أقوم بعملي بأمانة.. وأجمع القمامة في حاويات صغيرة، لتأتي سيارة البلدية وتنقلها إلى أماكن بعيدة عن الإنسان، سألني عن باقي العمال ولماذا كل هذه القمامة مرمية في

غير مواعيدها الرسمية؟ احترت ماذا أقول للمسؤول، صرخ في وجهي غاضباً: توقف وأجبني يا جبان. متلعثماً أجبته: ياسيدي كل الذي أعرفه أنه في كل صباح، أرى طابوراً كبيراً من العمال يوقعون على سجل الدوام، ويستلمون حصصهم من المواد الغذائية، وبعدها لا أجد أحداً غيري في المكان، يقولون إنهم يعملون في ورديات أخرى، الراتب لا يكفي العائلة، وأنا أنفذ التعليمات ولا أتدخل في شؤون الآخرين، أحياناً الكلام يتعب صاحبه أو يقوده إلى السجان. صفعني على وجهي بقوة قائلاً: وتعرف تتفلسف أيضاً يا فهمان. وأمر مرافقيه بطردي من العمل، ضاقت الدنيا في وجهي، ذهبت برفقة حمود إلى خمارة الحي الشرقي.. وبعد ثاني كأس من العرق المغشوش والدخان، نسيت من أنا ومن أين أتيت، حينئذٍ فقدت هويتي وعنواني. توقف قليلاً وقال: أيها السادة.. أتمنى أن تسمحوا لي بالسفر إلى بلدتي البعيدة، كي أمضي بقية حياتي بهدوء وأمان، واستروا ما شفتوا مني وعوضكم على الله، بتهكم تابع... بالناقص رقم في هذا الزحام. أصر " رئيس المخفر "على حجزه وتقديمه للمحاكمة أصولاً بموجب القانون. انتفض على نفسه وأسند قامته إلى الحائط.. وراح يردد: القانون فوق الجميع.. لا دور للعود

والناي ولا حتى للطبل.. لا بد من العدالة في توزيع الموسيقا على الأدوات كلها.. الناي والكمنجة والكمان، أسرع شخصان يرتديان قميصين أبيضين.. بوجهيهما الكالحين اليابسين، وبجسميهما الضخمين.. ألبسوه ثوباً فضفاضاً أزرق، وأدخلوه في بهو كبير يشبه النفق.. محشوا بالأسرة والضوضاء وأجهزة كهربائية متطورة. ابتسم بمكر وقال: أخيراً عثرت على مكان كي أنام.

امرأة من ندى

أدهشتني أم خليل بحديثها وعباراتها ،وقد تجاوزت السبعين من عمرها. وتساءلت كم كانت جميلة في صباها ، عيناها الملونتان الناعستان تحافظان على بريقهما ،لا تتوقف عن الإيماء بيديها ، تلك الإيماءات التي ترافق حركة انفعالها وشغفها ، تتوقف للحظة لتلقي نظرة جانبية على الوجوه التي حولها ، ثم تعود إلى حكايتها ، يبدو أنها تريد أن تتأكد من أن هناك من يهتم بها ، ترتب عباءتها و تمسح براحة كفيها على وجهها. كان يوماً حاراً ، وأم خليل تجلس إلى جانب امرأة ترافقها في المقعد الخلفي للحافلة التي تنقلنا إلى المدينة ،توحي لغتها الغنية بالمفردات والجمل المعبرة على أنها تتمتع بثقافة عالية ، التفتت إلى صديقتها وقالت: يا أم حسان الدنيا تغيرت

وعلينا أن نواكب التطور، نظرت عبر زجاج نافذة الحافلة إلى البعيد وتابعت،وأن نتعامل مع أبناء الجيل الجديد بالمفهوم الذي يرضيه حتى لا نبدو كمن يحارب طواحين الهواء، جيلنا عاش في الزمن الصعب.. مرارة الرحيل والهزيمة والعيش في الخيام، ليس من الضروري أن يعانوا مثلنا، أجابتها وهي تنظر إلى عينيها بشغف كأنها تلميذة صغيرة. ولكن كنا نحترم الكبار ونعطف على الصغار، أما هذا الجيل فلا يهتم. ومن دون أن تنظر إلى وجهها تابعت: الحياة تتغير وتتجدد كماء النهر، وعلينا أن نعرف متى نبدأ الحوار ومتى ننهيه، أطفال اليوم يشعرون بأنهم كبار أو على الأقل يعرفون من خلال وسائل التقنية المتاحة (الكمبيوتر والانترنيت وغيرهما). والمرأة دائماً تدفع ضريبة الحياة. عدلت من جلستها،وحياة عيونك الحياة قاسية لا ترحم المرأة التي لا تعرف كيف تتصرف وتحافظ على نفسها.. الجميع يطمع فيها، إما أن يكون طمعاً في جسدها أو مالها وأحياناً كثيرة كلاهما،فكيف إذا كانت أم لثمانية أولاد لا تعرف الراحة،وفاضت دموعها، فأخرجت منديلاً أبيض مسحتها... بعد أن حصلت على الشهادة الثانوية وتزوجت

من أبي خليل ومع أنه كان مدرساً للتاريخ في مدارس المؤسسة التعليمية للاجئين، تنهدت بعمق، أذكر جيداً عندما وقفت بين يديه وأنا أقدم له فنجان القهوة، وطلبت منه أن يبحث لي عن عمل، بعد أن وضع الفنجان جانباً قال غاضباً: اسمعي يا هنية... بعد الزواج لا يوجد عمل للمرأة.. المرأة المحترمة هي التي تعتني بسعادة زوجها وتعمل على تربية أولادها، العمل للرجل ولم يخلق للمرأة، لقد صعقت حين سمعته وقلت وأنا أحبس غضبي: أنت مدرس للتاريخ، وتتحدث بهذه الطريقة الجافة والمتخلفة عن عمل المرأة ودورها في المجتمع، ماذا تركت للآخرين الذين لم يدخلوا المدارس؟ ابتسم ساخراً: يا سيدتي اعتبري أنني من هؤلاء المتخلفين وصمت. بعد ذلك لم أناقش الموضوع، كانت صدمتي كبيرة وأنا التي لا تتسع الدنيا لأحلامي، ولكنني لم أستسلم، بدأت أطلب من صديقاتي أن يحضرن لي آخر إصدارات الكتب والصحف، مسحت دمعة هاربة من عينيها: الله وحده يعلم أنني لم أكن تواقة للعمل حباً في الخروج من البيت، ولكن ما زلت أعتقد أن المرأة يجب أن تملك استقلالية في حياتها، لتكون إلى جانب زوجها في السراء والضراء،

عضت على شفتها، هيهات.. لم أستطع إقناعه، وهكذا ضاع حلمي بالتعليم، نظرت إلى الفضاء، كثيرة هي الأحلام التي تضيع، سعادتي كبيرة حين أجلس مع فنجان القهوة والكتاب، أبحث عن أي معلومة أو خبر جديد، بصوت مسموع، (نحن قوم تشغلنا الأخبار)؟، يتواصلون من خلالها مع أهاليهم الموزعين على مساحة الدنيا، وأقرأ بعض الكتب التي تمكنني من المعرفة والتقرب إلى الله، وحين تسمح الفرصة أجتمع مع بعض النساء اللواتي لهن اهتمام بالمعرفة، من خلال حضور بعض دروس الحديث الشريف، التفتت إلى الوجوه من حولها، مسحت وجهها وتابعت: الحمد لله الذي رزقنا ثمانية أولاد وجميعهم حصلوا على درجات علمية جيدة، الحياة قاسية.. لكن القدر غافلني ودفعني لتحمل المسؤولية عن العائلة مبكراً، وفي أحد الأيام كان أبو خليل داخل قاعة الدرس يشرح للطلاب عن مصور فلسطين الزراعي.. من حيث موقعها الطبيعي في الوطن العربي، وحين وضع يده فوق المصور.. سقط على الأرض! وتابعت حديثها وهي تئن كجريحة: زوجي كان مع الفدائيين، العمل الفدائي كان همه الأول، وفي أحد العمليات تسلل مع أربعة من

رفاقه إلى فلسطين إيه... يمه، وأثناء تأدية واجبه أصيب برصاص جنود العدو، استقرت إحداها إلى جانب العمود الفقري، حمله رفاقه إلى مستشفى القنيطرة، تنهدت بأسى: "قبل الاحتلال" وبعد أن شفيت جراحه، تم نقله للتعليم، وتابع دراسته الجامعية. في دمشق، قال: عندما سألته عن سبب سقوطه في الصف، أنه عندما وضع يده فوق المصور، شعر بخدر وتنميل ثقيل يسريان في جسده، كانت أصابعه مسمرة على موقع الأرض التي أصيب فيها، نقلناه إلى المستشفى في المخيم، مرضه أقعده في السرير وبقيت ثلاثة شهور كاملة وأنا موزعة بينه وبين البيت، أجريت له عملية وأخذته إلى أطباء اختصاصيين لكن من دون نتيجة، لقد قرر الطبيب أنه يعيش أيامه الأخيرة، الرصاصة التي لم يستطع الأطباء إخراجها في العمل الجراحي الأول.. تحركت لتضرب العمود الفقري. أصيب بالشلل التام. كانت عيناه غارقتين بالحزن والدموع والأسئلة، طافح وجهها بالأمل، لم يقبل أهلي وجودنا بينهم. ولا أهله سمحوا لنا أن نقيم في بيتهم، وأولادي كانوا صغاراً لا أدري ماذا أفعل، لقد منحتنا المؤسسة مبلغاً، اشترينا شقة صغيرة في المخيم، وعقدت العزم أن

أعتمد على نفسي وقلت يا هنية: إذا تخلى عنكِ الجميع.. فالله موجود. ومن خلال بعض الأصدقاء الذين أمنوا لي عملاً يتناسب مع رعاية الأولاد استطعت أن أتحمل الصعاب، تذكرت كلمات أبي خليل عن عمل المرأة.. ولكن كان لا بد من البحث عن طريقة لتوفير لقمة العيش، عشرون عاماً وأنا أعمل وأخدم الأولاد، الحمد لله خليل تخرج في كلية الطب، وصادق مهندس مدني يعمل مع الدولة.. وخالد محامٍ وأريد أن أزوجه. قالت: هل هناك فتاة تناسب خالد؟ أجابتها على الفور: منذ عام زارتني ناديا وهي فتاة روسية بارعة الجمال، شعرها الأشقر ينساب على كتفيها، وقامتها مديدة كشجرة حور باسقة، وعيناها واسعتان بلونيهما الربيعي، يا سبحان الله آية من الجمال والرقة ولكنتها العربية المحببة، تعرفت إليها عند أم مرعي الشامية، التي نجتمع في بيتها لتشرح لنا عن دور الحديث الشريف في تربية المرأة، في حي الشيخ محي الدين، سألتها عن ناديا، أجابت: أختنا ناديا جاءت من روسيا بعد أن سُمح لها بالسفر وتعلمت اللغة العربية، وضعت أم مرعي يدها على كتف ناديا وقالت: أنا أكفل سلوكها. من يومها يا أختي قررت أن تكون هذه الفتاة

من نصيب ابني، كنت مبهورة بجمالها، تخيلي أنها أحبت طالباً سورياً وتزوجته، كان يتابع دراسته في بلادهم ومن أجله دخلت في الدين الإسلامي، وهي تتابع الدروس وتؤدي الصلوات في وقتها، مع أنني سمعت عنها الكثير... يقولون عندما سكنت في الحي الشمالي من المخيم، كان بعض أصدقائها يترددون على بيتها.. يتبادلون الكتب والأحاديث، وحين التقيتها حدثتني عن علاقتها بالطالب السوري الذي هجرها بعد أن منحته الجنسية الروسية، قائلةً: تحول ماجد إلى تاجر ينقل بعض البضائع من سورية إلى روسيا وبالعكس، تعرف إلى مجموعة من الذين يعملون في تجارة الممنوعات. نصحته كثيراً لكنه كان قد تورط، يقولون إنهم قتلوه.. أو ربما ألقي القبض عليه وأودع السجن في روسيا.. لم أعد أعلم عنه شيئاً، ولكنها كما تقول.. تابت إلى الله، وأنا قبلت توبتها من كل قلبي. يجب أن نمنحها فرصة للعيش الكريم.. وننسى الماضي. وابني خالد ليس لديه مانع.. عيون أمه لا يرفض لي طلباً. تذكرت: (بعض الجرائم التي ترتكب بحق المرأة في مجتمعاتنا.. لمجرد أن امرأة تتزوج رجلاً من غير مذهبها، قد تواجه الموت). وفي المقابل أم خليل التي

تجاوزت السبعين من عمرها، تقبل توبة ناديا الروسية التي لها علاقات جنسية سابقاً. وكانت متزوجة من رجل لا تعرف عنه شيئاً؟! ومع هذا لا مانع لديها من أن تكون زوجة لابنها، وما أدهشني أكثر موافقة ابنها وهو محامٍ له سمعته المهنية، قلتُ في سري: (المجتمع ما زال بخير لوجود أمثال هذه المرأة). انتبهت إلى نظرات أم حسان المستغربة وغير المصدقة لما تسمعه، أرادت أن تنهي الموضوع.. على أي حال الزواج قسمة ونصيب.وتابعت أم خليل الحديث عن أولادها: محمد تخرج في كلية الآداب، قسم اللغة الإنكليزية، وهو يحضر نفسه للسفر مع عمه إلى كندا، يقول: ليس له مستقبل هنا.. مستقبله في كندا، وفي أخر فصل الصيف سيرسل له عمه الفيزا، وميسا.. توقفت عن الكلام لحظة... ميسا تقبر أمها تشبهني تماماً، مع دراستها الجامعية كانت تساعدني في رعاية إخوتها، أما منى صيدلانية وزوجها رجل أعمال كبير في المخيم، أصبح المخيم خليطاً عجيباً غريباً من الناس.. هناك من لا يملك لقمة العيش.. وهناك من يعيش في الترف.. في الشارع الواحد تجدين مكاتب المنظمات التي تؤكد على العمل الفدائي.. وهناك من يعمل ويملك العقارات والمحال

التجارية والسيارات، سوق تجاري وعقاري.. ومكتبات ودور للعلم والتعليم المخيم لا يشبه المخيمات الأخرى في الدول العربية، يا حسرة: في باقي الدول العربية... الله يكون في عون الذي يحمل هوية فلسطينية. ومحمود يحضر للشهادة الثانوية وبيسان في الأول ثانوي، صمتت قليلاً وتابعت: كأنها لا تستطيع حبس دموعها.. بعد رحيله، حرمت نفسي من ملذات الدنيا وتفرغت لرعاية الأولاد.. الحمد لله جميعهم من المتفوقين في تعليمهم، وبعد أن أصبحوا قادرين على الاعتماد على أنفسهم، جاء عمهم من كندا، ذلك العم نفسه الذي حاولت الاتصال معه بعد رحيل شقيقه مرات كثيرة من أجل تأمين عمل لأحد الأولاد.. أو ليمدنا بالمساعدة الممكنة قال يومها: الحياة صعبة دبري حالك، جميعنا عندنا أولاد نريد أن نربيهم الآن جاء ليعترف أنه كان على خطأ، وأمنيته أن يتزوج ولدي خليل من ابنته خوفاً عليها.. ويقنعه بالسفر معه، بلا تردد وافقت.. أعجبتني الفكرة. ولرغبتي في جمع العائلة. أستمع إليها وهي تسرد حكايتها، تملكني شعور أنني أعرف هذه السيدة منذ زمن، امرأة تتحدث في أصول التربية.. تعرف كيف ومتى تسامح الآخرين.. تتحدث في

السياسة والاقتصاد ولديها معلومات كثيرة عن التسامح الديني، أريد أن أسألها عن سر تعلقها ومحبتها للفتاة الروسية، تُرى لو كانت ابنتها مكانها هل ستسامحها بنفس الطريقة؟. لا أدري لماذا بقيت صامتاً أستمع إلى حديثها الشائق وهي تثني على أولادها.. وعلى أولاد الحلال الذين قدموا لها المساعدات طوال تلك الفترة القاسية والمريرة من حياتها، حتى استطاعت أن تخرج إلى الدنيا، كانت تنظر إلى الشارع من خلال زجاج نافذة الحافلة وهي تمسح دموعها الغزيرة، وأنا وأم حسان نتبادل النظرات إليها بدهشة واحترام...

قبل أن تجف دموعها

ممدد شبه مشلول على سرير فرش بأغطية بيض، الغرفة ممتلئة بمختلف أنواع الأزهار المزينة بأسماء شخصيات معروفة "ذات أهمية"، لو قيض له أن يقبض على رقاب كل من يعمل معه لما تأخر في سحق أرواحهم، لم يكن يتوقع يوماً أن يفقد منصبه وماله بوقتٍ واحد، بعد أن كانت مزرعته ملتقى كبار التجار والسياسة.. وبعض كتاب الدعايات والتلميع في صحف المدينة، بعد كل هذا تنتهي حاله إلى العيش مع عدد قليل من الخدم، يظن أنه مازال ممسكاً بزمام الأمور، وأن مغامراته النسائية والتجارية تحت غطاء مكتب " وهمي للعلاقات العامة ".. لا يزال يحيطها بسرية تامة، لا يستطيع أحد.. اختراق جدران الصمت التي أقامها حوله عندما

أخبره كبير مساعديه أن أوراقاً مهمة وسرية للغاية، تتعلق بكل الصفقات التي كانت تتم مع شركات وهمية فقدت، صار يهذي، أصابته نوبة ارتعاش مفاجئة، هوى بعد ذلك على الأرض كجثة هامدة، وبما أنه لا يحب الذهاب إلى المستشفى خوفاً من الأسئلة والبحث عن الأسباب، أمرهم بإشارة من يده المرتعشة أن يأتوا بطبيبه الخاص مع الأجهزة الطبية، التي يحتاجها إلى مزرعته، التي تبعد عن العاصمة قليلاً، ويحيط بها سور كبير وكلاب حراسة مدربة جيداً، تميز رائحة كل من يعمل معه، فتسمح له بالدخول.. وتمنع الغرباء، حين استيقظ وجد نفسه ممدداً على هذا السرير. أخافه وجودها إلى جانب سريره وتناقلته الظنون، بعد كل هذه السنوات تكشف أعماله السرية، بملامح تعبر عن غضب عارم وأصابع يديه المرتعشة، ورذاذ اللعاب يتطاير من فمه في كل الاتجاهات، "هنا اركعي" أمام قدميَّ أيتها الخائنة، شعرت حنين بدوار شديد كاد يشل حركتها، لم تعد قادرة على النطق، زاغ بصر عينيها الدامعتين، اختفت غمازتا خديها اللتان كانتا تمنحان وجهها سحراً، كأنها تدخل في لجة دوار بحري مفاجئ، خرجت الكلمات من فمها متقطعة.. بصوت مخنوق، قالت: أنا خائنة.. أ، أ، أنا

التي منحتك أعز ما تملك تتهمني، لقد خدمتك أكثر من عشرين عاماً، من أجلك تحملت مرارة الحياة بعيدة عن كل من أحببتهم، لأنزلق في مستنقع من الشر تديره بأنانيتك وطغيانك، أمرر جسدي تحت نظرات كل الذين يعملون بإمرتك، وهم لا يشبهون البشر.. ليل وسكر ونساء، جافيت أهلي، تخليت عن مسميات كثيرة، أجهشت ببكاء مرير، وتابعت: يومها لم أكن أعلم أن غرورك الزائف يغطي رجلاً كاذب.. عندما تسطع أشعة الشمس يذوب الثلج ليجرف في طريقه كل الأشياء الجميلة، تاهت نباهتي التي كانت صديقاتي يقلن إنني أتميز بها، أصبحت امرأة خائبة، وعدتني بالحياة السعيدة في المدينة التي ستفتح أبوابها بساتين فرح، وكي تخدعني أطلقت على فيلتك اسمي.. حنين، وأنا كالبلهاء مأخوذة بكلامك المعسول، أقبض على جنون الريح، أذكر كلامك: في المدينة تحققي أحلامك في العمل ومتابعة الدراسة، " كالذين سبقوك تدس السم بالعسل "، نسيت الدنيا وتبعت أوهام حياتك.. السهر في الليل والنوم في النهار " كالراقصات"، والآن تتهمني بالخيانة وأنا مركونة إلى جوار سريرك، في هذا البيت الذي تدير منه أعمالك القذرة، كل هؤلاء الذين يحرسونك ويؤدون

أعمالك المخفية، ينظرون إلى جسدي بلهفة تنهش الشهوة داخلهم المتورم، ربما لم يكن لديك مانع أن ترميني لأحدهم من أجل مصلحة تتوقف على جسد امرأة، لكن في قرارة نفسك تعرف أنني أموت ألف مرة.. [غصت بدموعها].. ولا أسلم جسدي، ضحك، توالت ضحكاته الساخرة: لم أنسَ لقاءنا الأول.. لم أنسَ، احمر وجهها خجلاً، تمنت أن يحدث أي شيء، يجعل هذا الرجل الممدد على سريره أن يصمت إلى الأبد، كيف تنسى عندما اصطحبها إلى شقته المطلة على البحر.. هذا بيتكِ أتمنى أن تأمري بفرش أثاثه كما تشائين، يومها شربا كأسين من الخمر، شعرت أنها تفقد اتزانها، وعندما استيقظت بين ذراعيه عارية، حاولت أن تصرخ.. وضع يده القذرة على فمها... لا تخافي غداً صباحاً نذهب إلى المحكمة ونعلن زواجنا الشرعي، يومها لم تتكلم وظل الصمت يلاحقها كل هذه السنوات العشرين، نهضت، سأقول كل شيء، عادت بها ذاكرتها إلى ذلك اليوم، كيف تنسى يوم مشت حافية على الشاطئ الرملي، دعكت جسدها بالرمل من أسفل قدميها إلى رقبتها، ثم نزلت إلى البحر تتطهر من الدنس الذي مسها، يومها تأكدت أنها لن تكمل مسار حياتها معه، أراد أن يقبض على أي شيء يقذفه في

وجهها ، أيتها العاهرة ، نسيت نفسك مع من تتحدثين؟ هذه الملابس التي ترتدين من أين.. تلك الأساور التي تخشخش في معصميكِ من أين؟ قاطعته وهي تشتعل غضباً : لن تمس جسدي بعد اللحظة ، خلعت عنها ملابسها ، أخرجت الأساور الذهبية من معصميها.. قذفتها في وجهه :اللعنة على من يكنز الذهب والفضة ، [تهنا] بها.. اللعنة عليك وعلى كل لقمة طعام أكلتها في بيتك.. كل ما تأكله وتلبسه وتشربه.. [حدقت في الوجوه الجامدة المحيطة بسريره] مالِ حرام ، بعد كل هذا العذاب ، اليوم تتهمني بالخيانة لكي تتخلص من وجودي ،لا تطيق رؤية أحد يذكرك بالماضي.. بأطراف أصابعها الناعمة ، مسحت الدموع عن خديها ،لن أبقى دقيقة واحدة ، صرخ غاضباً : تخرجين عارية يا بنت الكلب ، فتقول بتحدٍ : تسترني كرامتي ، قاطعها : بعد أن سحب نفساً عميقاً من سيجار كوبي ، اسمعي وحدي أقرر متى تقدمين خدماتك لي ، ومتى تنتهي خدماتك ، في تلك اللحظة كانت بحاجة إلى بحر من الدموع لإطفاء الحريق المشتعل في داخلها ، قال زاجراً : ألم تفهمي ما قلت.. اجلسي هنا ، جلست عند قدميه ، جسدها ينتفض كحمامة ذبيحة ، يقذف أسئلته الجارحة كالحمم البركانية.. أين كنتِ بالأمس ومع من أمضيت ليلتك أيتها

اللعينة.. أين الأوراق؟ قاطعته مستنكرة عن أي أوراق تتحدث يا ظالم؟متهكماً: الأوراق يا ابنة اللعينة التي تودي بي خلف قضبان السجن، سنوات تستطيعين خلالها أن تعيشي بحرية. أنا أيها الغادر ليس من عادتي الخيانة، ربما هي عادة مزروعة فيك، لأنك نبت ملعون من قعر جهنم.. شجرة ملعونة أصلها في الدرك الأسفل من النار، وأغصانها تطرح ثمار أعمالك السيئة، تابعت ويدها فوق صدرها إلى جهة اليسار.. أقسم بالله يا رجل لم ألتقِ أحداً، ولم أنقل لأحد كائناً من كان أي مستند يخص عملك، أصلاً أنا لا أعرف ماذا تحتوي هذه الأوراق التي تتحدث عنها، ولم أغادر المنزل، بالأمس كنت نائمة إلى جانب سريرك وأنت تهذي بأسماء لا أعرف أحداً منها، كنت تكررها على لسانك وأنت تعاني من الحمى.. نساء ورجال..عناوين.. أوراق.. تتحدث عن سندات لم تجدها في خزانتك، أشياء غريبة كنت تقولها حتى ظننت أنك فقدت عقلك، تقول للبعض من هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم، حاضر سيدي.. كما تأمر، سأبحث عن الأوراق جيداً.. لا يا سيدي زوجتي امرأة غبية، مسكينة، لا تعرف قيمة الأوراق التي أخفيها.. وإلا كانت سلمتها إلى أقرب مخفر شرطة. وأنت تحت تأثير الكابوس متهكماً: ربما لو

عرفت زوجتي حقيقة عملي، لامتنعت عن تناول الطعام معي، زوجتي تظن أنني رجل لا أقوم إلا بأعمال الخير.. ومع هذا.. بقيت إلى جانبك وهذه صفيحة الماء البارد التي كنت أبلل فيها قطعة القماش وأضعها على جبهتك، صاح غاضباً: أخرجوا هذه المرأة من هنا.. إذا بقيت كالجثة مركونة أمامي سأصاب بالجنون، إذا من أخذ الأوراق أيتها العاهرة؟ كنا في البيت أنا وأنت والخادمة.. كرر أخر كلمة نطقها مرات عدة، الخادمة، ضرب جبهته بيده، يا إلهي: لماذا لم أفكر فيها من قبل.. استدعوا الخادمة وقبل أن ينهي أوامره، جاءت تمد خطواتها وهي بكامل أناقتها، تمشي كالطاووس بثيابها الجديدة، رائحة عطرها ملأت المكان، أهلاً، قال ساخراً: مين "بريجيت باردو "، جلجلت ضحكتها ورددت القاعات الجانبية صدى ضحكاتها: بريجيت مين، أنا مدام نانا، لاح رأسه أهلاً.. كنت أنتظر حضورك حتى تكتمل حلقة الجنون، التفت إلى زوجته: مين مدام نانا هذه يا ست حنين؟. حضرتك أعلم، تذكر كم مرة حذرتك منها لأنها تدخل إلى مكتبك في أوقات مختلفة، كنت تقول أنا أكلفها ببعض الأعمال، هذه النتيجة، تشبهك تماما، هل لديك تفسير لما يحدث؟ جلست نانا على كرسي قريب من

سـريره، وضـعت سـاقها فـوق الأخـرى، حتـى ظهـر اللـون الخمري لثيابها الداخلية، بهدوء مصطنع أخرجت ورقة من صدرها، قدمتها إلى حنين التي تقف أمامها حائرة، هذا عقد زواجي من هذا الرجل. ماذا..؟ وضربت بكفيها على وجهها. كما سمعتِ عقد زواج، صرخ فيها: المهم أيتها الناكرة للجميل أين الأوراق، ولمن بعتها؟ ضحكت ثانية، قدم لها أحد مرافقيها سيجارة مشتعلة، الأوراق في الحفظ والصون يا صاحب السعادة، التفتت نانا إلى حنين.. هذه امرأة بريئة من سرقة الأوراق"، على العكس، هي لا تعرف أعمالك الدنيئة، وضعت يدها على نهديها المتكورين خلف قميص مفتوح على صدرٍ أبيض، وحدي أعرف كل شيء عن صفقاتك السرية وغيرها، صرخ بصوت عالٍ أخرجوا هذه اللعينة، أنا الذي أحضرها من القرية، كانت تعيش الفقر، لا تعرف عن هذا العالم شيئاً، قلت في سري يا رجل هذه المرأة تستطيع أن تقدم خدمات كبيرة، وبجسدها الطري الذي كان يومها يتلوى خلف ثوبٍ طويل يخفي كل هذا البياض، تلبي حاجتي إليها كأنثى، وأشار إلى حيث تجلس حنين وليس إلى واعظ، تابع حديثه: حنين تستطيع أن تكون واعظة أو سيدة بيت ممتازة، تعرف كيف تربي أولادها، ولكنها لا

تستطيع أن تكون زوجة رجل أعمال، ضحكت نانا.. أنت لا تستحي.. عن أي رجل أعمال تتحدث؟ لماذا لا تقول لهم الحقيقة، أنت مجرد سمسار.. مهرب.. سارق.. تتاجر بالنساء، تبيع نفسك إذا اقتضت مصلحة أسيادك، صرخت حنين: توقفي عن هذا الهراء.. ماذا تقولين، عشرون عاماً وأنا أعيش بين جدران هذا البيت صماء، بلهاء، لا أعرف كل ما يجري داخل غرفه المغلقة، نبهتها: انتبهي وافتحي عينيكِ لتشاهدي جيداً من لا يحسب لا يسلم يا مدام، والآن أنا زوجته لي نصيب في كل ما يملك، ولمعلوماتك أنا حامل في الشهر الثالث، ساد صمت كاد يقتلها لولا أن سمعت رنين جرس الباب وحركة غريبة، صوت أقدام لها وقع قوي في الممر الرخامي، فتح الخادم الباب، دخل مجموعة من الرجال ذوي القامات الطويلة، يحملون أجهزة اتصالات حديثة، دخلوا إلى الصالون دفعة واحدة، تقدم أطولهم قامة، بهدوء: نريد السيد سامي الأعرج، تململ في سريره، حاول أن ينهض، خرج الصوت من فمه باحاً بنبرة متقطعة، أنا، أنا هو يا سيدي، قال الضابط بلهجة ساخرة كأنه يشير إلى مجسم مهمل، أنت.. أطبق الخوف على سامي الأعرج، اهتز جسده وارتعش حتى كاد يسقط من فوق السرير، تابع الضابط وقد تجهمت تقاطيع وجهه

الأسمـر، أنـتَ مطلـوب باسـم القانـون إلى هيـئة الـرقابة والتفتيش، أخرج الضابط ورقة عليها الخاتم الرسمي، لم ينطق بكلمة، تجمد دمه في عروقه، لم يستطع بلع ريقه، بقيت نظرته جامدة حائرة، حدق في وجه حنين طويلاً، حاول أن يعتذر لحنين عن الماضي وعن الظلم الذي مارسه عليها. ولكنها بهدوء بنظراتها المتسائلة في كل اتجاه، كأنها تودع المكان، وبخطواتٍ ثقيلة خرجت من دون أن تقول شيئاً، كان عليها، رغم كل شيء، أن تحدد اتجاهاتها.

لو تأخذني إليك

إلى امرأة رحلت

وحيدة والريح المسائية تداعب خصلات شعرها وقلبها ينتفض كعصفورة بللها الماء، وقفت تنظر للموج، العلاقة بين الغروب والبحر تدخلها بحالة تأمل، حين تجلس قبالة البحر بعيداً عن صخب المدن، تسترسل أحلامها، لكنها ما تلبث أن تعود إلى كابوس الحزن المقلق، غمغمت: أحمد يشبه البحر، يحتويها ويتركها دفعة واحدة، ابتسمت هازئة من نفسها، بعد الخمسين تحاولين عبثاً التعلق بالحياة، البحر بزرقته الأزلية وأمواجه الصاخبة، الشاطئ خالٍ من الزائرين، كأن البحر يتواطأ معها، حتى طيور النورس غادرت والسماء بدت خالية من الغيوم البيض، الشمس بلونها البرتقالي غاصت خلف المالح، والسماء بدت تفقد زرقتها، برد الخريف جعل

جسدها يرتعش، أشعلت لفافة تبغ، تناولت حفنة رمل قذفتها إلى الماء، تمد خطواتها إلى كهولة تعبة، يا له من زمن، حيث كانت ترقص بين يديه، يتدلى شعرها الأسود على كتفيها، يتلوى خصرها كراقصة، نهداها المتكوران خلف قميصها الشفاف يتوثبان بنزق، وشفتاها الورديتان المعطرتان برحيقه، لم تزل تشتاقه، سؤال يجرح كبرياءها، كيف افترقا.. فهي لا تشعر بالجمال والفرح ألا بوجوده، تذكرت كلماته... الذئاب وحدها تغدر بفريستها في حال ضعفها. لن تنس محاولة استغلال حاجتها للعمل، جاءت من قرية صغيرة يستيقظ ناسها مع الفجر.. من أجل لقمة العيش، وكيف حاول أن يستغلها.. مسؤول عن تعيين الموظفين ويغريها بكلامه المعسول: المدينة كبيرة.. خذي حريتك. لكنها لم تكن تعلم أن الصياد يغري فريسته بالطعام اللذيذ، ليس لها تجربة، مسحت دموعها، كان زياد ذئباً بشرياً، في موعد مسائي .. سهرة مرح كما قال، شيء ما جعل جسدها ينتفض وقد لامس بيديه وجهها، ضحك: أنتِ حساسة كثيرا. قالت وهي تتنهد بألم وخوف، ولكن يا صديقي هل الرجال كلهم زياد؟ صمت ثقيل خيم على المكان، أشعل لفافة تبغ نظر إلى الفضاء وقال: طبعا لا، وهل ستبقى تأخذ بيدي؟ مج نفسا من السيجارة، جاء صوته باهتاً.. ربما،

نحن في زمن المرء لا يكفل نفسه، ولكن لن أتخلى عنك مهما كانت الأسباب، تعلمت منه الكثير.. إنسان مميز، همس: الدموع لا تجدي حين تقع الكارثة، لأن الحياة لمن يتعلم من النائبات ولا تكسره. غابت الشمس وبدا الليل يرخي سدوله على الشاطئ، كان عليها أن تسرع، قبل أن يخرج عليها من بين تلك الصخور أو البيوت القديمة ذئب جائع لرائحة أنثى، ضحكت من خيالاتها، في الخمسين أو في الستين، الذئب إذا جاع لا يفكر بجمال فريسته أوفي عدد سنوات عمرها، الطريق مفعمة برائحة الأشجار الطرية، كل ذلك كان صحوة حلم أو ماض، والذاكرة مملوءة بتلهفاتها إليه، أسرعت بخطاها إلى البيت، قبل أن تنسى، هي أصبحت لا تضمن ذاكرتها، كثيرة هي الأشياء التي تنساها، ابتسامة فاترة ارتسمت على ثغرها، ضحكت، أيام زمان كلما ذكرته.. كان يأتي، يا ليته يأتي، ليأخذها إليه، لم تكن تعلم أنه يأتي كل صباح في الموعد نفسه، يقف تحت ظل شجرة الكينا، ينتظرها إلى جانب كشك الصحف، حين تظهر من بعيد، يختبئ خلف الشجرة، تأتي الحافلة وتنقلها إلى عملها، مرت السنوات ولم ينس مواعيدها ولا كلماتها ولا رائحتها، كان يردد، دعاء زهرة برية، على صدرها تتفتح براعم الحياة، كانت

تقاسمه حياته، تخاف عليه وعلى مشاعره، دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لقد خبت جمرات الموقد، أطفأت النور، بدت لها الجمرات كأضواء المدينة المتناثرة عبر النافذة المفتوحة، حركت الجمر، عادت للكتابة: المرأة عندما تحب.. تتألق، مررت نظراتها على الصورة المعلقة على الجدار، زهرة برية، أخاف عليك من كل شيء، لا تزال تخاف عليّ؟ بعدك حياتي ليس لها معنى، خذني إليك. أحلام يقظة.. خلف نافذة تلعب فيها الريح، ترتدي ثوبا فضفاضاً والمطر ينهمر بغزارة وهي ترقص، ملت زمن الكوارث والرحيل المفاجئ، لا تدري كيف تهرب من واقع قلق، بعد أن كانت تملأ الحياة صخباً، صارت"كومة من الخذلان"، صوت من الأعماق: "عش أنت.. إني مت بعدك". شعرها يهيم مع الريح، وتحت نافذة بيتها الطيني يجري جدول من الماء، تتراقص فوقه خيوط طحالب رقيقة فرحة ببقع الضوء، كم هي تحتاجه، بهذا البرد وشعورها بالمرارة، زجاجة نبيذ معه حلمها المؤجل، سمعت نعيق غراب يقف فوق أغصان شجرة التين، لكنها لم تهتم، استمرت تغني بصوت حزين، انتظارها لأشياء تتوقع أن تغير مسار حياتها، كان عليها أن تواجه قسوة الحياة، منذ بدء أول خطوات طفولتها الأولى، قالت والدتها: دعاء، فتاة خلقت منذورة

للوجع،ذكريات تستعيدها في الغربة، الماء الساخن يريح جسدها التعب. كتبت:

رائحة تبغك وعطركَ في كل زاوية البيت تعلن حضورك بلا مقدمات.. سكبت أخر كأس من النبيذ، دفعت السائل إلى جوفها، شعرت بالدفء، دعكت عينيها.. أتذكر تبادلنا القبل المتلهفة والشراب الخمري ينساب إلى نهديّ المتكورين، أترنح بين يديك، أنتشي، حاولت أن تتخلص من أحلامها كي تنام، سمعت نقرات أصابعه على زجاج النافذة،نهضت مترنحة، نقرات أصابعه تشبه نغمات عازف ناي حزين، أنا بانتظارك مليت، آلة التسجيل لم تتوقف وفريد يغني:

" عش أنت.. إني مت بعدك"، جلست على حافة السرير، القراءة وحدها تخرجها من حالتها المزرية، فتحت الدفتر، قرأت بشفاه تقطر نبيذا وكلمات دافئة: خذني إليك، يا من تركتني للحزن والمواعيد المؤجلة، أنا مخلوقة لك،تمتمت:أنت كل شيء،لا تتركني، بعد أن عرفتك عشقت تفاصيل الدنيا، عرفت معنى الفرح، وأن للدنيا مساراً آخر غير الحزن، طوال حياتي أبحث عن رجل يحبني.. إلى أن التقيت برجل أحببت كل شيء فيه. أكتب إليك:

أيها الساكن روحي، تهجرني، أنا المتمردة تقودني خطواتي إليك، الآن عرفت سر الابتسامات الكاذبة.. مللت الوجوه والأقنعة، كم مرة تمنيت الموت، كل هذا كان قبل أن أعرفكَ، بعض صديقاتي كُنَّ يتهامسن، نحن في زمن المرء الطيب ليس أمامه إلا الجنون.. أو أن يعيش وحيداً، الدنيا لا تسمح لأمثالي أن تفتح نوافذها للضوء، أنتَ ضوء يشع في حياتي.

أيها الغالي الذي يمر المساء ولا أراه، تمر المواعيد، صورتك في مرآة حياتي تنعكس لآلئ بلورية، تتراقص كالنجوم حول القمر، استسلمت لحلم سحري، شعرت بخدرٍ جميل أحست بطيفه يتلمس تفاصيل جسدها، همست: خذني إليك، أحلم بك وأنت معي، يبدو أنكَ المستحيل أو كما يقال " السهل الممتنع"، كلما حاولنا أن نلتقي.. تتسع المسافة بيننا، هكذا شاء القدر بين الحلم والواقع المر، صورتك المعلقة على جدار الغرفة تتشظى، أركض تتيه دروبي، أمد يدي أريد أن أمسك بك، تتصلب أصابعي فوق وسادة مبللة بالدموع، أيها الحاضر في البال، أشعر أنكَ تشاركني حزني تقرأ أفكاري، دقات قلبي تهمس..أحتاج إليكَ، أشم رائحتكَ، تتكرر أسئلتي ذاتها كل يوم، هنا جلسنا.. هناك تناولنا

الفطور، فوق بساط قديم شربنا كأسين من النبيذ، هنا على السرير غاصت شفاهنا في بعضها لتشكل ملحمة عشق،هربنا من الخوف المزروع فينا ورقابة العيون، كلما شدني الحنين أضغط زر آلة التسجيل، صوت عبد الحليم، وموسيقا بليغ، تبعثرني الكلمات، أتحدث إلى ورقي وكأسي؟ انتظركَ كل صباح مع إطلالة الشمس، لم أزل طفلة تنتظر، حضوركَ ضرورة كالماء والهواء، من المستحيل أن أحب أي رجل آخر، عالمي مرهون لكَ، تجول حراً فوق تفاصيل جسدي، معكَ أتحرر من خوفي، تستطيع أن تدخل بساتيني متى تشاء وكيفما تشاء، منذ أول مرة التقيتك، تعلقت آمالي عليك، وحدكَ تعرف كيف تداويني، تعال مع نسيم المساء .. تركت أزرار القميص مشرعة، ادخل متى تشاء بين نهدين من العشق واللهفة، هنا تركتكَ تكتب قصصك، يا عطر أيامي، تبدأ الكلمات بكَ ومعكَ، وأنا المرأة التي قررت أن تمنحك نفسها، عيناي لا تريان إلا صورتكَ، يا صاحب القلب الطيب.. يا طيب، يا ترى هل ظلمتك! عندما أنظر في عينك أنسى هموم الدنيا، أتمنى أن أكون بجانبك بقية أيامي، حررتني من قيودي أطلقتني لحياة لأرقص حرة على إيقاع " حافية القدمين"، أبحر بعيداً عنك، أدور في بحيرة من الحزن، ما إن أغيب حتى أعود تراقصنا موسيقا "مداح

القمـر"، عـاريين إلا مـن العـشق، تجـاوزت الخمـسين مـن العمـر، ورحـيلك مـتعب، لم تكـن عابـر سـبيل، المـاء الساخن ينساب على جلدها القمحي، ينحدر كجدول عذب، يبدأ بعنقها ويتسلل على امتداد العمود الفقري، رغوة الصابون تفرش سفح الخاصرة، وتلة الكتف، تنزلق قطـرات المـاء بـبطء، فـوق الـساقين المفتولـتين، تلامـس القدمين، بخار شفيف يتصاعد من ثنايا شعرها، تتلوى بجـسدها الـناحل، خـرجت مـن الحمـام، ارتـدت ملابـسها، شعرت بالدفء، ابتـسمت.. زهـرة بـرية، هـزت رأسها، أين أنت من هذه الزهرة التي أصبحت بقايا امرأة. عادت إلى ذكرياتها... كنت أمشي في طريقي للمدرسة، أشعر بنظرات فريد تحيطني، إذا تنفست أجده أمامي، يمد يده يرتب شعر رأسه الأملس ضاحكاً، لبيك أيتها السمراء الناحلة، كنت أتركه لكلماته الرقيقة، وأسرّع خطواتي إلى البيت، لكنه في أحد الأيام أمسك بيدي بقوة، سحبني من دون أن يقول شيئاً، إلى تحت ظل الشجرة الكبيرة، اقرئي: " دليا وفريد" التفت حوله، لا أحد يمر في تلك اللحظة، بسرعة فائقة ألصق شفتيه المتلهفتين فوق شفتي، شعرت أن تماساً كهربائياً اخترق جسدي، صرت أرتجف بين ذراعيه، وشفتاي غارقتان في شفتيه، في البدء خفت منه، أخذني إلى صدره، راح يعصر

نهدي، همس: لا تخافي ربما لأنها المرة الأولى. صوت الريح يضرب نافذة الغرفة، لقد باعدت المسافات بيننا، فريد تزوج من صديقتي نجوى، تركني لتلك القبلات الشهية التي ظلت في أحلامي، يائسة.. ولكن أتمسك بالحياة، ترحل إلى مدارات بعيدة، وأعود أنا لأنتظرك من جديد، كأسي الفارغة تحدثني، وقلمي الذي ملني يعتب عليّ، أوراقي التي أنت عطرها وحبرها، تشتاق إليك، لا أدري كيف أنتقل من حالة إلى حالة، دموعي تجري كنهر. زارني طيفكَ، لا أدري كيف تسللت إلي وأنا بيدي المرتجفتين أغلقت النوافذ. وجدتك بجانبي، أبهرني الحلم الذي يشبه الحقيقة، نهضت مسرعة أمسك بك.. تاهت توقعاتي، لأنك لم تكن أنت، شيء غريب يعتريني كل مرة يزورني طيفك، أشعر أن غرفتي الضيقة أصبحت بستان فرح، أضحك حتى تسمع الدنيا، أشتاق لأضحك بين ذراعيك، أنا التي لا تحب المغالاة في الكلمات.. أحتاجك، لنهرب خوفا من زمن يدوس فوق ربيع أحلامنا، صوتك يأتيني من البعيد، أحس أن الوجوه تنكرني، دعني بين أحلامك، خذني حيث تكون، أخربش على أوراقي في جوف الليل، ليأتي طيفك متى شاء، اغسلني بالماء ثلاثة كي أعود إلى الطهارة، تقهرني الابتسامات الصفر. شعرت بألم في معدتها جعلها متوترة،

أحست أن روحها تغادرها، تناولت جرعة من الدواء أو من النبيذ لم تعد تُفرق بينهما، مستسلمة لتخيلاتها... لم ألتقيك ولم تلمح عيناي عينيك.. لم تجمعنا أية مناسبة، لكنا تحدثنا طويلاً، منذ طفولتي أبحث عنك، أعبث في دفاتري وكتبي وحقيبتي المدرسية.. أضحك من نفسي، أجدكَ بين ضلوعي، يأسرني الحزن الساكن في عينيك، أتلاشى محترقة مهزومة.. هل تسمع دقات قلبي؟ كان عليك أن تطفئ احتراق شوقي؟ كم تريد تعذيبي وأنا المخلوقة لأجلك، لم أعلن هزيمتي إلا أمامك، ولا أحد يكشف انكسارات روحي إلا أنت، تعال.. كي أعلن عن أنوثتي، كي أعود صبية في العشرين. نحن النساء نعلن هزائمنا أمام من نحب، ننبش ماضينا، نشعر بأن العمر تختصره كلمة طيبة، وبأن العالم الواسع يضيق ويضيق حتى تتسع له حدقة العين، من أجل لحظة فرح، أنا لا أحب الهزائم. تحركت في سريرها، تساءلت: متى يطلع الفجر أريد أن أنام؟حان موعد الدواء، نهضت مترنحة أخذت ملعقة من دوائها المر، ماذا ينفع الدواء في جسد انتهى.. قالت بأسى: يا ليتكَ تأتي لتأخذني إليك...

الخريف

الريح باردة والمساء مثقل بالغيوم، والحنين يدفعني إليها، لم تكن هناك حين مررت بباب بيتها، الريح تصفر، لقد حطمت العاصفة زجاج النافذة المعشق بالألوان، داهمتني مشاعر تبعث على اليأس، المكان شبه مهجور، (الإنسان لا يعيش وحيداً)، أوراق الدالية تتساقط.. كأنها تبكي،تفرش الممر، فكرت أن أعود من حيث أتيت، لكنني وقفت خاشعاً بين يدي الباب، كلما حاولت الاقتراب.. تنتابني قشعريرة مفاجئة، اقتربت أكثر، يا إلهي:كأني أسمع صدى صوتها، تعال.. اقترب أنا بانتظارك، كلانا يشتعل شوقاً، تخيلتها تلوح بيدين تمسكان بطاقة من الورد الأحمر وتشعان بالبياض،

دعكت عينِّي، لا شيء إلا صفير الريح، قلتُ في نفسي: الخريف مرَّ من هنا.. وأخذ معه كل شيء، ولكن لا أدري لماذا وقفت أتأمل، شيء ما يدفعني كي أدق الباب، ارتعشت يداي من البرد والخوف، سألتني الريح من أنت، وجهك ينم عن رجلٍ تعب، لم يعرف الباب صوتي، وتلك النافذة التي حطمتها الريح.. أنكرتني، ما زلتُ أذكر كم مرة لوحت لي من خلالها بكفها المخضب بالحناء، كنتُ حائراً أتساءل، هل أخطأت باب بيتها! أم هي الأبواب المهجورة تتشابه، معقول أن يكون الطريق إلى بيتها تغير، أم أنا ضللت الطريق، لا.. من غير المعقول أن أخطئ الطريق والباب والدالية، ما زلتُ أذكر هنا تحت ظلها التقينا وتعانقنا أول مرة، شهقت صفاء، كأنها تغني ويداها تطوقان عنقي، سرقنا الليل.. غفت على صدري حتى الصباح، قبل أن تغادر.. وقبل أن آتي إليها لأقف بين يدي الباب، واجهني سؤال، ما كل هذا الحنين.. وهي التي تركتني للريح ورحلت، قلتُ في سري، لا يكفي الحنين، منذ زمن لم تتصل.. وحتى رسائلها انقطعت.. كل ما بيننا ماضٍ وصور لا تزال في الذاكرة.. تهرب! وهي التي مارست عشقي سنوات طوالاً، عطرها مطرزٌ على

جسدي كالوشم، لا تزال تتعشق أحلامي، امرأة لها حضورها المشتهى، مغسولة بماء الورد، كانت تجيئني وتترك شفتيها بين شفتي، شهداً من العسل، وقد عقدت شعرها على شكل نجمة، أنفاسها تحيطني، ضج المكان برائحة الطيب والغار، صفاء، امرأة تعرف متى تتعطر، ومتى تسرح شعرها أو تضفره جدائل، تعرف كيف تسحرني بلا مقدمات، نلتقي حين تشاء، ونبتعد حين تشاء، وتعرف كيف تجعلني أسير اللحظة والمكان مستسلماً بين ذراعيها، وتعرف متى تحدثني من خلال حوار الدموع والكلمات، تلمع في عينيها نظرة شغف محيرة، حيث لم أعد أتمالك عواطفي فتتدفق كشلال من الماء، يا له من زمن، تاهت عن طريقي، وأنكرني باب بيتها، تيبست أصابعي وأنا أدق الباب، لا شيء إلا الصدى يردد كلماتي، الخريف بارد، والمساء مثقل بالغيوم المحملة بالمطر، وأنا ارتجف من شدة البرد، أنادي ..لا أحد يجيب، مجرد أحلام. غابت.. ولكن طيفها لا يزال يلاحقني، السنون تمضي، مازلت أحتفظ بصورها، لا أستطيع التخلص من ذاكرة هي كل شيء فيها...

قمر أخضر في سماء غزة

إلى غزة ومنها لفلسطين *

لأول مرة تخرج ميس الحمامة البيضاء عن أوامر مجد، فهي ترافقه منذ طفولته، وهي الأقرب إليه من ضمن سرب الحمام الذي يقوم بتربيته، في برجٍ بناه على مهل، مع أن لكل حمامة مكانتها عنده، ولكن ميساً ملكة السرب. حملها بيده رفعها عالياً ثم قبّلها، قبل أن يغادر ليلتحق برفاقه الذين سبقوه إلى الخط الأول للدفاع عن تراب غزة، شعر أنه يحتاج لمن يودعه، لم يستطع وداع أمه فهو وحيدها على شقيقاته، بعد استشهاد والده في الانتفاضة الأولى، ردد: لسنا وحدنا ولن يمر هؤلاء الأوغاد إلا على أجسادنا. حاول أن يخفي دموعه، حين قرأ في عينيها: إلى أين ذاهب، في عينيك حيرة تخيفني. مسح على

بياضها وقال: ربما لا أعود، أرجو أن لا تغادري هذا البرج، مهما طالت مدة غيابي، كادت تنطق.. لا تعود. بعدك لا حياة لي في هذا المكان. خمنّ أفكارها، حاول أن يكون صلباً، اسمعي، إذا لم يكتب لي الله العودة.. أمي ستعتني بكن فهي تعرف مكانتكن عندي، ألقى نظرة حزينة على وجه أمه وشقيقاته وانطلق، بعد أن حزم خصره بشريط من الذخيرة والقنابل،وضع الرشاش على كتفه، ربط حول رأسه شالاً كتب عليه:

(لا إله إلا الله)،

ومضى في طريقه منتصب القامة،بقيت الحمامة تراقبه حتى غاب خلف البيوت، صفقت بجناحيها وهي تنظر للمكان نظرة وداع. عليه أن يعلم.. لن أنتظره، سأرافقه إلى حيث يكون، مجد حياتي، ارتفعت في الفضاء محاولة أن تختفي عن السرب، ولكن مجداً برهافة الشوق شعر أن ميساً تلاحقه، في تلك اللحظة أمطرته دبابة معادية بوابل من طلقات الرشاش، قفز خلف جدار مدمر ووضع يده على الزناد، عرفته رجلاً لا يهاب الموت، فجأة حلق سرب من الطيران المعادي، قصف المكان بالصواريخ والقنابل الحارقة، احتارت أين تختبئ

وكيف ستتركه، حاولت أن تجد وسيلة لتتابعه، اخترقت غيمة من الدخان الأسود، لاحقتها شظية أصابتها في جناحها، سال الدم على بياضها.. فبدت حمامة من البياض والدم، ولكنها لم تستسلم، أخذت تعلو وتنخفض بحثاً عنه، وقفت فوق كومة من الدمار وهي تتمايل من الألم، بينما مجد يواصل الزحف وقد أصيب بشظية مزقت كتفه، اقترب من الدبابة المهاجمة، جهز سلاحه للرمي، رأته، فكرت أن تمنعه أو تلتصق به، نظر إليها وابتسم، ولكن الطيران المعادي لم يترك لهما فرصة للحوار، راح يطلق صواريخه في كل الاتجاهات، لا يهتم لإنسان ولا لمسجد.. أو بيت. انتظر اللحظة المناسبة لينقض على الدبابة، التفت ليراقب الحركة وجدها أمامه، تلاقت نظراتهما وبدأ السؤال ملحاً، تمايلت أمام عينيه ببياضها المخضب بالدم، دار بنظراته على البيوت المهدمة، طالعته وجوه الأطفال المحروقة والمتسائلة.. عن سر الصمت، وأشياء تقلقه .. شاهد خطيبته بيسان تلوح بيدها من خلال نافذة بيتها، ابتسم لتطمئن، أومأ للحمامة أن تعود، حاول أن يتراجع.. خاف أن تفشل خطته لتدمير الدبابة، زحف إلى الأمام، نظر إلى النافذة ليودع بيسان، كتم صرخة غضب في داخله خوفاً من أن ينكشف، يا إلهي: تحول البيت

كتلة محترقة، تسارعت دقات قلبه، فكر أن يترك أمر الدبابة ليوم آخر.. ليتأكد من سلامة بيسان وأهلها، تذكر كيف كان يبعث لها الرسائل تحت جناح الحمامة، وهي تسرع إليه كل مساء. قطب حاجبيه، واصل الزحف على العشب الطري المبلل بعرق ودماء الرجال الذين سبقوه، الحمامة تترنح متألمة، عليه أن يسكت نيران الدبابة للأبد، سمع صوت المؤذن يعبر الأسلاك الشائكة والبوابات المقفلة والأنفاق التي تقصف من جانبي الحدود، مدن غارقة بالصمت.. حي على الجهاد " اللّه أكبر ". في تلك اللحظة لم يعد يشعر بألمه انبثق ماردا وكلمح البصر اقتحم برج الدبابة. وألقى قنبلته ليفجرها بمن فيها، بصوت قوي صرخ: لن تمروا، هذه الأرض لنا بترابها ومائها ورملها وحمامها. ترنح البطل وقد أصابته طلقات في ظهره، حاولت الحمامة أن تنهض، لكنها فشلت، وقبل أن تحلق من جديد أدهشها، وقد رأت غيمة تعلو.. وتعلو حتى أصبحت سماء غزة كلها ملبد بالغيوم السود، ورأت سراباً من الحمام يخترق السواد باتجاهها، صفقت بجناحيها وهوت، حلق سرب الحمام فوق المكان، حيث لا شيء إلا دوي الأنفجارات، ثم اجتمع السرب.. حول جثمانيهما على شكل قلب مفتوح.

نهضت أمه من بين الركام يا الله لا شيء يتحرك، حبست دموعها وهي تفتش عن أولادها، صرخت مجد.. أين أنت يا بني، انتشلت جثث بناتها، تجمع الناس حولها وأخبروها بما حصل رفعت رأسها عالياً لقد فعلها البطل، وراحت تترنم بصوت يشبه هديل الحمام:

" راحـــوا الغوالـــي يمـــه راحـــوا..." نظـــرت إلى السماء، ابتسمت، تخيلت أن قمراً أخضر... يرتفع في سماء غزة.

دمشق 2009

الوهم

الريح تطلق صفيراً يشبه العواء، لفت جسدها بغطاء سميك، شعرت أن قلبها ينتفض كطائر ذبيح، ترتعش من قدميها إلى رأسها، خافت أن تأخذها الريح في هذه الليلة الحالكة السواد تقلقها، كما خافت من صوت العواء، يحاصرها الخوف! وقفت خلف النافذة تراقب جنون العاصفة، أشباح وخيالات تعبر أمام عينيها.. شيء ما يتحرك، غمغمت يا إلهي... لا يزال الذئب واقفاً على قائمتيه وعيناه المشتعلتان كجمرتين تراقبانها، متهيئ لأن يقفز في أية لحظة، كل هذا بسبب تلك الفتحة التي تسلل منها.. والتي أحدثتها الريح في جدار السور الغربي في ليلة

عاصفة، اختلطت فيها الأشياء.. الريح..والمطر.. وعواء الذئاب؟! وعلى الرغم من أن الجدار تم بناؤه من الطين المعجون بعرق ودماء جدها، شيده ليحيط بالحاكورة، التي حولها إلى غابة من السنديان والزيتون، تذكرت أن جدها قال قبل أن يفارق الحياة: الزيتون يبقى يا جدي.. وتبقى الأرض؟. هزت رأسها وهي تمسح دموعها.. معه حق، الزيتون يبقى. أنا متأكدة أن هذه الأشجار أقدم من البيت الذي ورثه أبي عن جدي.. وجدي عن أبيه؟! في بداية كل شتاء يزرع والدها القمح.. وينتظر رحمة السماء، وضعت يدها على خدها وعيناها تراقبان حركة الذئب، المطر هذا العام شحيح، لا شيء إلا الريح وحدها تعوي.. كهذا الذئب الواقف على قائمتين ولحظة انقضاض، تساءلت.. كيف تتخلص من الخوف، ومتى تبدأ أول خطوات البناء؟ كانت تنتظر أحداً ما يأتي (من غير المعقول أن يتركوها وحيدة في مواجهة الذئب.. امرأة لا تقاوم ذئباً)؟. وهو بدوره ينتظر أن تشتد الريح.. لتتحول إلى عاصفة ثلجية، تقطع عن هذا المكان كل عابر سبيل، فتح فمه " مقهقهاً "ظهرت أنيابه الحادة، وبدأ يغمغم:

(حين تغلق الطرقات يصبح من السهل القضاء عليها)، توهم: أنها تدخل إلى الحمام، تترك جسدها تحت الماء الدافئ، عارية بصورة مقلوبة بحسب نظرات عينيه المشقوقتين طولاً، شم رائحة الطريدة.. رائحة الأنثى أثارت غريزته، أخذ يلف ويدور حول المكان، ثم عاد ليقف على قائمتيه وينظر إلى النافذة، مع الريح وصلت إليه رائحتها، هز الذئب رأسه: ما هذا الإغراء.. إنها تستحم.. أنثى وحيدة تتمتع بكل هذا الجمال! بينما يقف وحيداً في العراء، هل يبدأ عنيفاً يفرض غريزته عليها بالقوة.. أم يبدي مرونة في ملامستها.. ربما المرونة تحقق رغبته، المرأة يغريها الكلام المعسول، حاول أن يقفز إلى النافذة ليراها وهي تحت شلال من الماء الساخن. ربما يسقط وتكشف نواياه، كثيرة هي الأفكار والخطط التي حاول أن ينفذها.. ولكنه لم يستطع، بينما هي ترتعد خوفاً وبرداً، أحست كأنها تهوي في بئر عميقة.. صرخت.. لا أحد يسمع صوتها.. المدينة تسبح في ليل من الصمت، مدينة استراحت عن الكلام، رائحة البحر والليمون تزيد شهيته بالانقضاض، لن يتركها تنعم بالدفء. طوفان من الأسئلة غير المتوقعة

والكوابيس تطاردها ، رفعت نظراتها إلى النافذة.. كاد قلبها يتوقف عن الخفقان، الذئب أصبح يقف أمامها تماماً، أنفاسه الكريهة شكلت طبقة سميكة من الضباب على زجاج النافذة،رفعت صوتها أكثر،لا أحد يسمعها ، المدينة تنام على بحر من الأحلام، مخدرة بالزمن، زمن مكتوب بالكلمات المنمقة.. دائماً تقرأ ما بين السطور، شاهدت أنيابه الحادة، لم تتخيل في يوم من الأيام أن تقف بمواجهة ذئب! وهذه الريح المجنونة تصفر كأنها تحتفل بموتها أو باغتصابها! حبات الرمل تضرب على زجاج النافذة، قالت: يا ليت السماء تمطر حجارة لتصيب منه مقتلاً، آه لو أن الشمس تظهر في الليل، تذكرت بندقية والدها ،ركضت إلى خزانته القديمة ،تناولت البندقية، سحبت دافع الطلقات،يا إلهي: إنها فارغة! عشرات السنين وهي تتوهم أن والدها يملك بندقية محشوة بالطلقات، يدخرها لمثل هذا اليوم، مات والدها ،وحين احتاجتها وجدتها لا تساوي لحظة خوف أو نظرة غدر من هذا الذئب اللعين، ماذا تفعل وهو لم يزل جاثما كصنم، "هبل واللات يجوبان نفق الظلمة"، عيناه

تلاحقانها ،أمنيات تشبه تحقيق المعجزة، ولىّ زمن تحقيق المعجزات؟ الذئب لا يزال يقف على قائمتيه، والريح تشتد ، والصمت طاغ، والمرأة تحاول أن تدعم الأبواب والنوافذ ببعض الأثاث الثقيل، أشعلت شمعة في الظلام.. قطعت الريح التيار الكهربائي، في هذا الجو المفعم بالخوف والبرد ، ابتسمت وقد خطر ببالها: فنجان قهوة يساوي الكثير، خلعت ملابسها وارتدت بدلة والدها ، حزمت خصرها بشال قديم ووقفت أمام المرآة تتمعن بتفاصيل جسدها ،وشفتاها ترتعشان، سأمسك بقبضة البندقية.. وحين يتقدم الذئب نحوي أضربه على رأسه بقوة.. شدت بيديها الغضتين على مقبض البندقية، أسندت ظهرها إلى الجدار، تنبهت بحذر لأول مرة تكتشف أن الجدار مائل ومطلي بلون أصفر باهت، سقطت فوق رأسها تلك الصورة القديمة المعلقة على الجدار، " صورة العائلة" ، شعرت أن الدم الساخن يسيل على خديها ، لكنها لم تترك مقبض البندقية ، شكل لوحة لها دلالة مبهمة ، ارتجفت خائفة أن تغفل عينيها عن الذئب الذي راح يزمجر. حاول أن يستغل لحظة ضعفها. قالت: سأقتله قبل أن ينال

مـني، جـسدي لا يمكـن أن يكـون لـذئب عابـر.. أو لقرصـان.اقتربـت مـن الـنافذة، لا شـيء إلا الـريح والمطـر.. وخـيالات مـن بعـيد تـروح وتجـئ، ضـحكت مـن نفـسها، وأسـندت البندقـية إلى الجـدار المائـل، ارتـدت قمـيص نـوم أبـيض شـفاف، تـناولت كـأس مـاء.. وتمـددت باسـترخاء.. كـي تنام؟!.

ورقة طلاق

استيقظت خائفة لا تدري كيف تتحرك في هذا الظلام، يبدو أن التيار انقطع، بأصابعها المرتعشة تلمست الأشياء علّها تجد شمعة، أشعلتها، وضعتها فوق الطاولة، أدهشتها الفوضى من حولها.. قصاصات من الورق وفناجين القهوة، دعكت عينيها كأنها خارجة من صالة سينما أو حلم، تعبت كثيراً حتى جمعت المقالات من الصحف، التفتت حولها ربما دخل أحد ما إلى غرفتها وتسبب بكل هذه الفوضى، لا يمكن لأحد أن يدخل وقد أغلقت الباب جيداً.. ضوء الشمعة أعاد لها شيئاً من الطمأنينة، لا تدري ما الذي يدفعها إلى الخوف كلما انقطع التيار، أياد سود بأصابع طويلة وأظفار ملتوية قذرة تخرج عليها، تحاول أن

تخنقها، ترتعش ويتعرق جسدها، هواء بارد تنبهت، النافذة مفتوحة، كادت الريح تطفئ نور الشمعة، تنهدت بمرارة: الوحدة نصف الموت، شدت المعطف على صدرها جيداً، وأغلقت النافذة بإحكام، هذه الليلة شديدة البرودة، معقول أن تكون تسببت بهذه الفوضى في اللاوعي، لقد تحولت حياتها إلى كومة من الورق، صراخ خفي بدأ ينفلت في داخلها.. يتحول إلى أغنية حزينة، يصبح خوفاً يعربش على جدران قلبها كأغصان شجرة اللبلاب، تخيلت الأغصان تلف حول نفسها لتتحول إلى ما يشبه المقصلة، وأن كل تفاصيل حياتها صارت تحت رحمة الجلاد، بصوت مخنوق صرخت: ارفع يديك عن صدري، هذا البستان محرم عليك، نحن الاثنان نمتثل بين يدي القاضي، بكلمات جادة سألت الرجل الضخم... ألا تخاف سطوة القاضي، رد الرجل مستهجناً وقد رفع يده عن صدرها... أنا أقرر: لمن يكون كرسي القضاء؟ توقفت عن الدوران، كانت تبحث عن شيء ما، الدنيا تدور من حولها، نسيت عما تبحث، ذاكرتها تعبة، الخيالات المخيفة تطاردها، الأيادي السود لم تزل تخرج عليها من مكان غير متوقع، دائماً تسأل نفسها: لماذا تصاب بكل

هذا الرعاش كلما انقطع التيار؟ تلاحقها أشباح بملابس سود.. يخرجون من أي زاوية، عادت إلى قصاصات الصحف، قرأت في صفحة الحوادث..(قتل.. اغتصاب، امرأة تطلق النار على زوجها بعد أن ألقى بوجهها ورقة الطلاق.. شاب ملتح يقتل شقيقته حفاظاً على شرف العائلة.. ويحمل بيده سكيناً لا تزال آثار الدماء عليها.. يضعها بين يدي القاضي معترفاً بجريمته)، في الصفحة التالية.. أدهشتها صورة لطفلة صغيرة ترتدي ثياب أمها الراقصة، سألتها الصحفية: هل تحبين ثياب الرقص؟ أجابت بفرح طفولي... عندما أكبر أتمنى أن أصبح راقصة مثل أمي. مرهقة هذه الحياة، حاولت أن تشد من عزيمتها.. لا.. أنا أقوى من ذلك الرجل الذي ألقى في وجهي ورقة الطلاق، وليكن طلاق، الحياة يجب أن تستمر، بوجوده وعدم وجوده، تذكرت كلمات صديقتها: (المرأة بلا رجل.. كشجرة بلا أوراق)، قصص خيالية تتوارد على مخيلتها، ينتشر حبر الكلمات على بياض الورق كيفما يشاء، فقط التوقيع يتغير والأسماء والعناوين، وقفت في وجهه كأنها تعيد إليه ذاكرته.. في النهاية أنا يا سامي لا أستحق عندك إلا ورقة طلاق. وقفت في الممر تأملت

صورها معه وهي في ثوب الزفاف. هزت رأسها بأسى: امرأة " مطلقة "، تسمع صفير الريح القوية في الخارج، وحفيف أوراق الشجر على زجاج النافذة، برق ورعد وأمطار غزيرة، العمر يمضي بين الكتب والصحف، الوحدة تدفعها إلى الكآبة والقلق، ورق في كل مكان، على أرض الغرفة.. وفي سلة المهملات.. وحول السرير، أينما نظرت لا تجد إلا نتفاً صغيرة من الورق، هي امرأة تنام على الورق وتستيقظ على الورق، أخيراً ورقة طلاق تحتويها.. تكسرها من الداخل، لا يزال صوته يطن في أذنها... هذه ورقتك .. يمكنك أن تمضي بقية حياتك كما تشائين، وليكن بيتكِ من ورق وأحلام؟، انسحب بهدوء وهي تسمع وقع حذائه في الممر مغادراً، لم تعرفه جاداً كما كان اليوم، كانت تحلم أن يشاركها بقية حياتها، حين تعرفت إليه كان ذلك في ليلة باردة، تشبه هذه الليلة تماماً، التقيا في أمسية أقامها المركز الثقافي في العاصمة، تحدث عن حرية المرأة ودورها المميز في تربية الأجيال، كما تحدث عن حقها بأن تختار طريقها وشريك حياتها، لتحقق رغباتها وطموحاتها، وتبني شخصيتها المستقلة، كان يتفجر نضوجاً وعيناه تلمعان بفرح أشعل داخلها،

صفق له كل من في القاعة، بدا مقنعاً في طرح الشعارات، في تلك اللحظة تمنت أن تأخذه إلى صدرها وتتركه يغفو، حرارة التصفيق أعادتها من حلم جميل، حين أصبحا تحت سقف واحد وبدأت مرحلة التحولات على حياته، ظهر على حقيقته، بلا قناع.. كل ادعائه بالدفاع عن المرأة ما هو إلا وهم ونفاق، كان يخفي خلف القناع رجلاً متسلطاً.. يمضي أياماً في الملاهي، رجل لا يستطيع العيش من دون قناع، وعندما بدأت تطالبه بحقوقها. راح يكيل لها الاتهامات الجاهزة... أنتِ امرأة لا تقدر مكانة زوجها؟ وحين واجهته بمواقفه في تلك الأمسية التي لا تنساها، قال: الممارسة لا تنطبق على الواقع يا جاهلة، دعاها إلى تناول فنجان قهوة بعد المحاضرة، همست له بحماسة وتودد: كنتَ رائعاً. ابتسم: المرأة هي نبض الكاتب ومحبرته إن لم تكن هي فضاء إبداعه، المرأة قطرات المطر الربيعية التي تخمر التربة لتنبت سنابل وأزهاراً.. تنعش داخله.. تخصب خياله، حين يشعر بحاجته إلى الدفء.. تكون دفأه، التفت حوله وقال: مثلاً في هذه الليلة الباردة، كم يحتاج الرجل إلى حضن دافئ يترك تعبه وهمومه ويستريح بين ذراعي امرأة

تشبهك، كادت تطير من الفرح، بلا تردد: أنت، نعم أنت من أبحث عنه، بقي صامتاً خاف أن يفقدها، لم تمض مدة طويلة حتى تزوجا، تنهدت بمرارة.. لكنه تغير كثيراً، إنسان انتهازي حين لاحت له فرصة اقتنصها، أمضى ساعة كاملة يتحدث عن حرية المرأة.. وكيف يجب أن تدافع عن نفسها، تذكرت كلماته قبل الزواج: أنتِ تجمعين نساء الدنيا بامرأة واحدة، ولأن يرمي بوجهها ورقة الطلاق، أنت طالق.. طالق.. طالق، ومضى من دون أن يضيف شيئاً. بجرأة قالت: أنتَ كهؤلاء الذين يأمرون الناس بالتقوى... وينسون أنفسهم؟ منعها من متابعة حضور الأمسيات الثقافية بحجج مختلفة، ومنعها من الذهاب إلى دور السينما، ومنعها من متابعة الصحف، أو قراءة الروايات، قالت: بعد أن وضعت أمامه كأس الشراب الملون، تمنع عني الحياة، كل هذه الأشياء هي جزء مهم من تكويني ومن شخصيتي، وتقيد حريتي، هل تريد أن تهدم البيت الذي حلمت في بنائه على مر السنين، تناول رشفة من الكأس، نظر إلى وجهها، كأنه يراها لأول مرة، وقال: المرأة المتزوجة حريتها بيد زوجها، كلام المحاضرات لا يتفق مع الواقع، غادر الشباب يا مدام.

ردت:وماذا يعني ذلك؟يعني أن تلتزمي بيتك.. وتحترمي الرجل الذي وافق أن يكون زوجك، قبل أن يتم حديثه، خيم الصمت الثقيل في المكان، المرأة الصالحة هي من تهتم بزوجها وبيتها، قالت بحدة... تابع سيمفونيتك المعهودة.. وأولادها، هل نسيت؟ رد غاضباً: أنا لم أقصد ذلك، دموعها تسبق كلماتها... يا لخسارتي فيك، لقد قتلت في داخلي الشاب المثقف، الذي يدافع عن حرية المرأة، قاطعها :أكرر.. ما يقال في المحاضرات.. مختلف عن الواقع. معك حق، ستظل المرأة برأي الرجل "ضلعاً قاصرة" أو قليلة عقل، تحتاج إلى من يحميها، هي في عرف المجتمع امرأة للسرير والبيت والأولاد. رمقها بنظرة حادة. هذه إهانة. كأنها تعلن تفوقها عليه... هذا الواقع.. وهناك الكثير أمثالك.. يلهثون للتعرف إلى أي امرأة، ولكن عندما ينالون رغباتهم يتركونها لمصيرها، وحين تأكدت أني لا أسلم نفسي لرجل لا يجمعني برباط الزوجية، ثارت دوافعك الرجولية، كيف تخسر امرأة تشتهيها، صرخ غاضباً: كفي عن إهانتي، تابعت: دون أن تهتم لغضبه.. لذلك كان عليك اختراع فكرة " الزواج المؤقت، ومن ثم الطلاق، عفواً، أنا لست بهذه الصورة

السيئة. وصلت إلى ذروة غضبها وشعورها بمرارة الهزيمة، ردت بقسوة: أنت أسوأ ، تشبهون من يتاجرون بالمخدرات، في البداية تستجرون الشخص إلى ملعبكم.. وبعد أن يقع في الفخ تملون عليه شروط الشراء، قال: هذه وقاحة عليك دفع ثمنها. ابتسمت ساخرة: لا تغضب، مثلك كثيرون يحاضرون عن " العفة ".. والكرامة وعن محاربة الفساد.. وهم غارقون فيه. أخرجت الورقة تنهدت وهي تمزقها: " اللعنة عليك وعلى ورقة الطلاق" من بعدك.. لن تتوقف الحياة .

عوسج جنوبي

إلى فاطمة الجنوبية..
وإلى كل فاطمة على امتداد
مساحة الوطن.

فاطمة لم تتخيل أنها في يوم من الأيام ستتحول إلى امرأة تسعى إليها الصحافة، ووسائل الإعلام ومراسلو وكالات الأنباء، من العرب والأجانب، كل ما كانت تفكر به أو تحلم أن تكونه.. زوجة صالحة، ويرزقها الله أولاداً يشبهون هادي.. ابتسامة فاترة ارتسمت على شفتيها، كانت تسمع من أمها كلاماً ظل يرافقها (المرأة التي تحب زوجها.. تنجب أولاداً يشبهونه)، هي نفسها لا تعرف كم تحبه، هو كل شيء في حياتها.. الهواء الذي تتنفسه.. رائحته تشبه رائحة الأرض.. في وجهه ترى الشمس والقمر.. ينتمي لأرض الجنوب كالعوسج ينبت من حول الصخر ويورق أزهاراً كعقيق.. بنفسجية جنوبية، تستيقظ

في الصباح، تعد طعام الفطور قبل أن يذهب إلى عمله في الحقل القريب من "حدود الشمالية لفلسطين "، تمتمت: فلسطين كم حدثها عنها وكيف تشرد شعبها من جراء (العدوان الصهيوني.. وما ارتكبه من مجازر) الله يكون في عونهم وعوننا كي نسترد أرضنا، بعد تناول طعام الفطور يذهب ليحرث الأرض ويزرعها، يعتني بأشجار الزيتون.. وفي المساء يعود إليها بابتسامته الوادعة، على الرغم من التعب الجسدي الذي كاد يهلكه، يتحمل ما لا يطيق أحد تحمله، يعمل بصمت، يدندن بمطلع أغنية معجونة بالحزن الممتد إلى ماضٍ لا ينساه، يغيب عن بيته في نهاية كل شهر لمدة أسبوع.. وربما يمتد غيابه أياماً، وعندما تسأله عن سبب غيابه الطويل، تشعر أنه مرتبك.. ويجيبها بكلمات مقتضبة وحاسمة، يا حبيبتي: (لا تخافي.. هذا الغياب من أجل الأرض) كانت تظن أنه يسعى لدى أحد المسؤولين في المدينة لتأمين المواد الزراعية.. كالأسمدة وغيرها.. من أجل تحسين الموسم، تساءلت حائرة: لكنه كان يجيء آخر الليل تعباً.. ورائحة عرقه تملأ المكان، وبعض الجراح الصغيرة تتوزع جسده، بعد أن يغتسل ويرتدي ثيابه، تجهز له العشاء فيأكل من دون أن يقول أية كلمة.. ثم ينام بعمق كأنه لم ينم منذ

سفره، تجلس على حافة السرير بهدوء، تسمع أنينه، هي تثق بزوجها وبأخلاقه لم يساورها الشك بتصرفاته. أبعدت الفكرة عن خيالها..." لا سمح الله ".. استغفرت الله ثلاثاً.. ولو كان متزوجاً من امرأة ثانية ويعيش معها في قرية قريبة من قريتهم لعلمت، (الجنوبيون يعرفون بعضهم جيداً)، سألتها أم هاشم: بينما كانتا تتناولان شراب الزوفا، بالله يا فاطمة أين يذهب زوجك بسفراته الطويلة؟ حائرة أجابت: وحياة نبينا "محمد صلوات الله عليه" لا أعرف: هادي رجل طيب ويعاملني معاملة حسنة، لا يترك فرضاً.. ينام والقرآن الكريم إلى جانبه، تلفتت حولها وهمست: الحكي بيني وبينك.. أريد أن أتأكد، حين سألته قال ضاحكاً: لا تخافي يا أمي.. أنا لا أعمل شيئاً يغضب الله أو يغضب رسوله أو يغضبك. الوقت يميل إلى الغروب والشمس بدت كأنها تودعهما، انظري يا خالة كأن الشمس تدمع.. فيها بريق غامض، أشعر أن جسدي يرتعش وقلبي مقبوض.. الله يسترنا، نهضت أم هاشم على عجل: هاشم منذ أسبوعين لم يأت من المدينة.. ربما يجيء الليلة، نهضت فاطمة تعد المائدة وتحضر الحمام.. ربما يعود الليلة أيضاً، حاولت أن تشغل نفسها بأي شيء، جلست خلف النافذة المطلة على الوادي، ترقب وصوله،

فجأة سمعت دوياً هائلاً.. إنه انفجار، ثم ما لبثت أن سمعت صوت المؤذن من الجامع القريب "الله أكبر.. الله أكبر".. كان المؤذن يكبّر بصوت فيه نوع من التحدي، يا إلهي: الوقت ليس وقت أذان العشاء.. وأذان المغرب فات؟ ما الذي يجري في البلد.. إنها لا تعرف شيئاً، خرجت إلى التلة المشرفة على الحدود مع فلسطين المحتلة، قالت: (الله أكبر) كل شيء من حولها ينفجر، الطائرات المعادية تقصف القرى والبلدات والمنازل الجنوبية بجنون.. وتحرق الزيتون والتبغ، تلقي بآلاف القنابل، وبعض الرجال الملثمين يعبرون إلى الجنوب.. يخرجون من تحت الأرض.. إلى ساحة القتال يزينون رؤوسهم بتيجان من العوسج، ينطلقون من أمكنة غير متوقعة.. كأنه يوم القيامة؟ حاولت أن تلحق بأي واحد منهم لكنهم تجاوزوها مسرعين، دخلت إلى البيت، فتحت خزانتها القديمة، تناولت بندقية أعدتها جيداً وجلست تنتظر؟ في تلك اللحظة كان يقود مجموعة من الرجال الذين عاهدوا الله على النصر.. ليواجهوا الدبابات الصهيونية، التي تحاول أن تتجاوز الحدود، فرحة النصر على العدو.. دفعته لأن يتقدم باتجاه الدبابة محاولاً أسر بعض أفرادها، لكن طلقات لعينة من رشاش معادٍ أصابته في صدره.. رفع يديه إلى

السماء وهو ينظر باتجاه بيتهم، كان يردد قوله تعالى " إن ينصركم الله.. فلا غالب لكم... إن.. وغاب صوته"، شعرت أن هناك أمراً مهولاً قد حدث، فاضت عيناها بالدموع وهي ترقب الرجال الملثمين يمرون من حولها، حاولت أن تتعرف إلى أحد منهم، لتسأل عنه.. لم تستطع، لم تغمض عينيها طوال الليل، كلما سمعت وقع أقدام في الخارج، تركض تفتح الباب،لا أحد.. إلا الرجال الذين يتجهون إلى الوادي الكبير.. الرجال القادمون من الشرق ملثمون يحملون أسلحتهم فوق أكتافهم، لقد كانوا في عجلة من أمرهم، حين جاء الصباح.. كانت تغفو على كتف الباب.. وهي تضم البندقية إلى صدرها، سمعت طرقات قوية على الباب، نهضت من نومها وركضت حافية القدمين، فاجأها وجود ثلة من الرجال يقفون بصمت خلف الباب.. الدموع الحارقة في عينيها وهي تستمع لأحد "رجال المقاومة" الذين أدوا لها التحية، لقد حدثها عن شجاعة زوجها وإيمانه الكبير بالنصر، عندئذٍ جلست على الأرض تحضن صورته وبدلته التي سلمها إليها، وقالت وهي تحاول أن توقف ذرف دموعها :الآن عرفت أين كان يغيب.. تذكرت كلماته جاء صوته واثقاً :(ما أقوم به من عمل في المدينة يا فاطمة من أجل الأرض.. ومن أجلنا

جميعاً)، طلبت من هاشم أن تحتفظ ببندقيته وبدلته فهي في الشهر الأخير من حملها.. وعليها أن تسلم الأمانة إلى هادي..، قالت وهي تحاول أن تنهض: الطريق طويلة.. وهادي الصغير يجب أن يعرف موقع والده في المقاومة، رفضت أن تغادر بيتها الجنوبي المعرض للقصف كل دقيقة.. بل لقد أصابت بعض القذائف ساحة الدار وأحرقت بعض الأشجار، لكنها بقيت قوية كما هو العوسج الجنوبي.. تساعد الرجال الذين يمرون بها وهم في طريقهم إلى المواجهة، تضمد الجرحى وتؤمن لهم الدواء والطعام طوال أيام الحرب، كان الصحفي عبد الله يستمع... وفاطمة بنت الجنوب تشمخ بقامتها وتتحدث عن علاقتها بالأرض وزوجها.. وعن تربيتها لابنها.. لتواصل الحياة، قالت وهي تضم إلى صدرها بدلته المرقطة وتمسح دموعها عن خديها النضرين اللذين يشبهان أرض الجنوب المستقبل لنا يا أخ عبد الله.. لا بد أن يأتي اليوم الذي نتجاوز فيه هذه المعابر والحدود الشائكة إلى فلسطين؟!.

امرأة ناضجة

حاولت أن تغمض عينيها لم تستطع، الكوابيس تلاحقها، وحيدة بين جدران تضيق على أحلامها، تريد أن تنام لتنسى.. كل شيء حولها يدفعها إلى القلق، الوسادة.. مرآتها.. زجاجات العطر، الصور المعلقة فوق سريرها، الطفولة.. الجامعة، كانت تقلب صفحات دفتر صور قديمة. توقفت ملياً أمام صور من رحلة قامت بها مع زملائها إلى البحر: كان يوماً لن تنساه في حياتها. أمضته على شاطئ البحر .. بعيداً عن العيون .. مشيا حافيين على الرمل، غاصا تحت الموج.. يتسابقان من يستطيع البقاء تحت الماء مدة أطول، ضحكت وهي تردد أغنية عبد الحليم: إني أتنفس تحت الماء.. إني أغرق " وتركض كطفلة وراء كرة الطائرة، تلك الأيام لا يمكن أن

يمحـوها الـزمن، تمـر وجـوه أصـدقائها أمـام عينـيها كـشريط سـينمائي، أحمـد ونـدى.. دلال.. علـي وحـسان، ملامحهم تسكنها، تذكرها بالماضي الجميل، هذا علي.. يقف إلى جانبها وقد ترك يده تلامس شعرها، تذكرت كيف ردعته ... لا تتظارف، ارفع يدك عن شعري.. أنا لستُ لكَ، حزيناً قال: ستندمين.. الأيام بيننا، حسان رجل لا يعرف الاستقرار، لكنها لم تسمع، حاول أن يقترب منها، التصق بجسدها وهمس في أذنها، الحياة أمامنا طويلة معاً نستطيع أن نفعل الكثير. أجابته وهي تنظر إلى حسان الذي يمسك بآلة التصوير... لا تكن سخيفاً، ما بيننا مجرد زمالة لا أكثر، طوتهم الأيام.. كما أخذت منها علي، وبقيت تنتظر. كانت ليلة باردة.. غرفة النوم باردة.. الشرفة تضيق عليها.. فنجان القهوة، جلست أمام مرآتها وقد أدهشتها أصناف المساحيق وزجاجات العطر الكثيرة، وتلك الصور التي تذكرها بصباها، كل هذه الأنواع من العطور والمساحيق.. لامرأة لا تستطيع أن تحتوي في سريرها رجلاً. تظهر بين الآخرين وتتألق بكامل أناقتها، امرأة ناضجة لها تجاربها في الحياة. حسان، أخذ منها جل وقتها.. كانت ترافقه إلى المقاهي والمتنزهات

ودور السينما، سافر، بعد أن أخذ كل ما يتمناه الرجل من امرأة نذرت له حياتها، حينما كان يجيء.. تبدو الدنيا في نظرها أكثر جمالاً، أشارت بيدها هذه الكأس لم يشرب منها أحد بعده.. وتلك الشرفة لم يجلس عليها رجل غيره، لم تشعر أنها امرأة إلا بين ذراعيه، وجوده يجعلها تضج حيوية.. يشكل حياتها بكل تفاصيلها، مع أنها امرأة.. تعرف أنه يشبه العصفور .. لا يسلم نفسه للصياد، لم تستطع إقناعه بتغيير رأيه، قال قبل وداعها: السفر حياتي الثانية، لا تبكي ستجدي الرجل الذي يقدر جمالك وأنوثتك وطموحكِ، تنهدت ولكن أنت كل ما أريده وليس أحد غيرك. عفواً... أنا لم أعدكِ بشيء، تذكري حين كنا معاً وقد أخذنا الشراب إلى غرفة نومكِ.. وقفنا لحظة أمام السرير وقلت أنا لا أحب العيش ضمن القفص، لا مال عندي لأبني بيتاً ولا وقت عندي لتربية الأولاد، ضحكتِ يومها قائلة... لا تراهن سأجعلك ترضخ للأمر الواقع. بعدها عرفت أنك تحتالين نتيجة رهان بينكِ وبين زميلاتك، قالت: من فضلك.. قبل أن تتركني، هل أنت نادم؟ لم يتردد..لا، أنت امرأة.. يتمناها أي رجل. تخيلت صورته تكلمها.. الأربعون من العمر ذروة نضوج المرأة.

ولكنكِ بلا رجل، حتى فنجان القهوة الصباحي لم يعد له طعم، أحلامك بالوظيفة أخذ منكِ الكثير من الوقت والعمر، لكنكِ أيضاً كنت تنظرين بتعالٍ لكل رجل يتقدم، غادر.. ومن قبله علي، تخرج من الجامعة تقدم خاطباً، يومها ابتسمتِ هازئة.. أنت لا تناسبني. قال: ما رأيك أن نبني حياتنا معاً، وعلى الرغم من معرفته بعلاقتك القديمة، لم يسأل عنها، كانت الدنيا لا تتسع لفرحك بالفوز على ندى التي كانت تتمناه وتحلم أن يفكر فيها كزوجة أو حبيبة، قالت ندى: أتمنى أن أكون خليلة له يا أحلام، المهم أن لا تأخذه امرأة غيري، مع هذا كان جوابك بالرفض، متعللة ربما علي شاب ناجح وله مستقبل.. لكنه لا يناسب طموحي، منطو وغير اجتماعي وغيرته تخيفني، وأنا امرأة لها تجاربها في الحياة لا تسلم نفسها لرجل عادي، غادر المدينة وبقيت أنتِ تنتظري. سافر ونال شهادة عالية من أوربا.. ولما عاد.. ترافقه امرأة غاية في الجمال مع ولدين رائعين، أما أنت يا للأسف، تأوهت بمرارة وهي تنظر إلى الصور، ما كنتُ أظن أن علياً الشاب المنطوي يصبح على هذه المكانة الاجتماعية يا أمي. ما كنت أظن، في كل صباح تغادر أحلام غرفة

نومها وهي لا تستطيع أن تعبر عن حلمها ولا عن عواطفها.. ولم تستطع ترويض أنوثتها الفائرة، حياتها باردة.. تشعر بالفراغ، عادت أمها من خلال الذاكرة التي لا تهدأ. خالد تقدم إلى خطبتك، كان جوابك بالرفض، بنبرة جادة، كنت أشعر أن دلال تهواه وتميل إليه، أردت فقط أن أثبت لها أنني قادرة على الفوز. رددت:حطمت قلب دلال وخالد، وها أنت تدفعين ثمن.. الانتظار، أشعلت لفافة تبغ وقفت من جديد أمام مرآتها، فجأة شعرت بثورة على تلك الأصناف من المساحيق والعطور، لملمتها وألقتها في سلة المهملات، لمن أتزين.. لمن ارتدي هذا القميص الشفاف وأعتني بجسد يفور رغبة، لا أستطيع النوم، أتقلب على جمر، أريد رجلاً يأخذني إلى صدره، يمسح على وجهي براحتيه، يعبث في تفاصيل جدائلي، ينزلق على صدري شهياً، لم تلمسه امرأة غيري، يخرجني من وحدتي المملة، رجلاً يشبه حسان أو علي، انتظر والعمر لا ينتظر. الليل بارد والصمت جاثم، وأحلام تفيض أنوثة، تمر اللحظات العابرة، والأسئلة لا تمر.. والليل يطول، لم تعد تسمع صوته، كان يقضي الليل يبادلها الحديث عبر الهاتف، الهدوء يكاد (يجننها)، أمها بعد أن تدخل إلى غرفتها تغط في نوم

عميق، في الأربعين تجاوزت الزمن الذي يأتي فارس الأحلام كما في الأفلام الهندية، اعترفي أنكِ امرأة على الرغم من نضوجها، خائبة، أشعلت لفافة تبغ من جديد وقفت أمام المرآة تنظر إلى جسدها الذي يفور، بثورة غضب حطمت صورها، ،أخرجت زجاجة ملونة من خزانتها، وضعتها على فمها وراحت تشرب بلا وعي، وانسلت تحت الغطاء تنشد لحظة نوم...

عام آخر يرحل

وقف أمام مرآة قديمة، رتب ربطة العنق جيداً.. مسح على شعره، ابتسم: عام آخر يرحل.. تجاوزنا الستين، أجل ولم أعد إلى بيتنا لأبحث عن طفولتي في بستان أبي، ابتسمت ومسحت بطراوة أصابعها على خديه... لا تهتم في نظري دائماً أنت الأجمل، كلما تقدم العمر بكَ تتحول إلى نبع من العاطفة، حاولت أن تخرجه من كآبته.. كم تشبه الغيمة المحملة بالمطر، ما تلبث أن تتكاثف وتمطر لتروي ظمأ الأرض، أخذته بين ذراعيها نظرت إليه بشغف، حين تمطر السماء أذكرك حتى ولو كنتَ بعيداً، سحبته من يده.. اقترب وخذني إلى صدرك ظمآنة إليك، أدهشته ببراعتها، قال: عاماً أخر يضاف إلى

غربتنا، أذكر حين جئت مع أهلي طفلاً صغيراً لا أكاد أعرف طريقي.. وصلنا إلى هذه البلاد، نحمل أوجاعنا وخوفنا على ديارنا، هذا البلد الذي حضننا طوال أكثر من ستين عاماً لن أنساه، ينمو معي ويكبر، وأعرف أدق التفاصيل عن أحيائه وناسه، من خلال حكايات والدي عن بيتنا الطيني الواسع وعن أرضنا المزروعة بالبرتقال والزيتون، وقفت أمامه تنظر إلى وجهه حائرة وقد بلل الدمع خديه، ليس من المعقول أن تبكي يا رجل، نحن نعيش في هذه البلاد.. تعودنا على أهلها وشربنا ماءها وأكلنا من خيرها، ولا ندري ماذا حل في بيت أهلك ربما هدموه،وقف أمام صورة والده المزينة بشريط أسود، هذه صورة أبي وهذه أشجار الزيتون التي حدثني عنها، والمرأة التي تقف إلى جانبه.. أمي، ربما لا تشعرين بألمي، :هذا الصندوق فيه"مفتاح بيتنا وصرة فيها حفنة من تراب أرضنا"، أمضينا بعض طفولتنا فيها،لا أدري كيف أجعلك تنسى وجعك، شعرت أنها جرحته وقد تركها تتكلم وهو ينظر إلى صورة والديه من دون أن يعلق ولو بكلمة، لم أقصد جرح مشاعرك ولكن علينا أن نتعامل مع الواقع، أنت أستاذ جامعي، قاطعها،والأستاذ الجامعي لا يحق له أن يفكر في وطنه.. بأمه وأبيه يا مدام،يتكلم

من دون أن ينظر إلى وجهها.. إذا كنتِ تحملين هوية هذه المدينة، هذا لا يعني أن تسخري من أحلامي بالعودة إلى بيت أبي، ربما الأمر بالنسبة إليكِ مختلف ولكن أنا أشعر أن غصة دائمة في حلقي، وبالمرارة حتى مع شربة الماء ولو كنت جالساً في قاعة المحاضرات، أو مستلقياً في سريري، حاولت أن تقاطعه كي تعتذر عن أسلوبها في التعبير عن رأيها، تابع:لا أنت ولا الأولاد... ولا راتب الجامعة.. يغني عن التفكير بحقي أن أعود، أنظري إلى مصور الوطن العربي، (فلسطين) في القلب،قالت وقد رقرقت في عينيها دمعة تشبه اللؤلؤة... معكَ حق، المسافة بعيدة بيننا والزمن طال ونحن نمضي في غربتنا، السنون تمر وعام آخر يضاف إلى رصيد حزننا ومآسينا، يبدو أننا اعتدنا على الحزن، نتعايش معه حتى صار بعضنا. والذين ينظّرون علينا كل مطلع شمس.. بأننا يجب أن نحاور الآخر.. يرفضون حقنا في الحياة. فكرت كيف تخرجه من حالته... دخلت إلى المطبخ وجاءت بسلة مليئة بأنواع الفاكهة، جلست إلى جانبه بقميص نومها الشفاف، وضعت ساقها بين ساقيه، تناولت تفاحة حمراء، قسمتها نصفين، وقد أسبلت عينيها الملونتين، نصف لك ونصف لي، ابتسم: المرأة حين تريد إغراء الرجل تستعين بتفاحة،

ضحكت.. بتفاحتين، أخذها بين ذراعيه، دخلا في مغامرة من العشق كأنهما في ريعان الشباب، قالت: وهي لا تزال تستلقي على السرير، كان للتفاحة مفعولاً قوياً، منذ زمن لم أشعر بهذا العشق. دخل إلى الحمام، ترك جسده تحت شلال الماء الساخن.نهضت: تستحق فنجان قهوة. قال وهو يدعك رأسه بالمنشفة: لا بد من أن نعلم أولادنا تاريخ الوطن. ابتسمت.. كنت أفكر أنكَ ستكتب قصيدة عشق لم يكتبها نزار قباني. ومع هذا كلما مر عام تبدو بحزنك.. أجمل.

لقاء عابر

بلا مقدمات رجل و امرأة كانا غارقين في الصمت، المصادفة وحدها جمعتهما على الشاطئ، لم يسعفهما الكلام، حدَّقا باتجاه قارب صيد في عرض البحر، قالا معاً: ما أجمل أغاني الصيادين.. يا بحرية.. هيلا..هيلا. نظر كل منهما إلى وجه الآخر، الريح المسائية تداعب شعره، حلت جدائلها السود، الشمس تودع يوماً شديد الحرارة من شهر آب، تشاغل عن نظراتها المتسائلة في جمع بعض الصدف، حاول أن يبني من الرمل بيتاً على شكل خيمة،لا شيء إلا الماء والشمس شكلا لوحة زاهية من الألوان، نظر إلى عينيها الواسعتين، المسكونتين بالأرق، ملامح وجهها حزينة، تحفر في الرمل وتجمع الماء

بكفيها، شعرت أنه يراقب حركاتها، دفعت ساقيها البرونزيتين تحت الموج، الأضواء الملونة تتأرجح على امتداد الشاطئ، قال: وعيناه معلقتان على الموج... للغروب وقع خاص يمنحنا وقتاً إضافياً للتعبير، لا نشعر بالخوف حين نبوح، لم تكن رأته من قبل، لكنها لم تستغربه، تأملته جيداً، هناك شيء ما يؤكد أنها تعرفه، يبدو أننا نواجه الاحتمالات ذاتها، ونهتم بنفس التفاصيل، أعجبتها قامته المديدة و عيناه اللتان تشبهان زرقة البحر.. وابتسامته الدافئة، أشارت بيدها إلى صخرة غطتها طحالب البحر، ما الذي دفعك لتأتي إلى هذا المكان، شعر بالإرباك، خانته العبارات، عندما رأيتك لهف قلبي، تخيلت أنني أعرفكِ، باستغراب، عفواً، تابع: ربما الحلم هو السبب، ومن دون أن ينتبه إلى تقاطيع وجهها المندهشة، أقصد طيف المرأة الذي زارني.. كان يشبهكِ تماماً، سحبت ساقيها من تحت الماء، قطبت حاجبيها، ولكن أنا ليلة أمس لم أغادر لأي مكان، ابتسم من دون تعليق، تابعت حديثها بجدية أكثر... أظن أنني لم أقل شيئاً مضحكاً: لا، لا أقصد، كان مجرد حلم أو تخيلات رجل متوهم، خيم الصمت بعض الوقت نظرت إليه، كان يحاول أن

يقترب منها ،سألته، لماذا تحمل طاقة البنفسج، غمغم: هذه التخيلات ستجرني إلى المصائب، ابتسمت: أحب البنفسج ولكن في مكانه الطبيعي وإشارة إلى السفوح المقابلة، لا أتمنى لأحد أن يقطعها أو يسجنها في أصيص، حاصرته ولم يعد يدري ما يفعل، بينما تعبث بكل ما بنته، فتحت ثغرة بجدار الحفرة لتسمح للماء بالعودة،كل شيء يعود إلى أصله، أومأ برأسه وهو يضع طاقة البنفسج إلى جانبها ،معكِ حق، قال ذلك و هو لم يفهم ماذا تقصد بكلامها عن عودة الأشياء إلى أصلها، غاصت تحت الماء لتغسل جسدها من بقايا الرمل، سمع صوتها المشبع برائحة الخمر هامسة... الرجل دائماً يتجاهل حاجته إلى المرأة، نحن في عالم ينحاز إلى الصمت، ومن دون أن تنتظر جوابه.. قالت: الرجل يريد المرأة من أجل تكوين أسرة وإشباع رغباته، يختلق الأحاسيس التي تغريها، لكن يمنعه حياؤه أو كما يدعي كبرياؤه من الاعتراف، خرجت من الماء كحورية البحر، كأنها زنبقة، قطرات الماء تجري عابرة بين نهديها المندفعين بتحدٍ، راقب قطرات الماء وهي تنساب حتى أسفل قدميها، قبل أن تغادر تمنى أن تقول شيئاً، بعد أن فاجأته جرأتها ،وهو غارق في

تفاصيل جسدها المكتنز،وانسياب جدائلها المتروكة كقصيدة شعر، لم تكن ترتدي أكثر من لباس البحر، النساء كثيرات على الشاطئ و لكن أنتِ جعلتِ مني رجلاً خاوياً، في تلك اللحظة، تمنى أن تسعفه ذاكرته ببعض الكلمات التي تغري امرأة تفيض أنوثة، ترسم على شفتيها ابتسامة عذبة، بينما هو خائر القوة، مشتت الفكر، لِمَ الرحيل و قد تآلفنا، نظرت إليه كأنها في حلم وضحكت، تابع لم أتعرف إلى اسمكِ، رمقته بنظرة سريعة، وهمست بيسان، لاح رأسه موافقاً، اسم جميل لامرأة متألقة وجميلة، أنا أعشق البحر و الجمال والأسماء، خيم الصمت على المكان من جديد، الناس يأتون إلى البحر.. يلقون بهمومهم من أجل لحظة فرح، حين رأيتكِ شعرتُ بدافع قوي يشدني إليك، همت أن تمشي، أمسكها من يدها تمهلي، لا أستطيع البقاء وحيداً، قالت:تركت المدينة منذ مدة، ولكن لم أظن أنني سألتقي برجل يحمل كل هذه الصفات الرقيقة، ولديه كل هذه المشاعر الدافقة، رفعت شعرها إلى الأعلى، أريد أن أسألك، لماذا اخترتني من بين الجميع، انحنى قليلاً ورفع طاقة البنفسج عن الرمل، وقفَ

بـــين يديها ،أخـــذت طاقـــة البنفـــسج، ضـــمتها إلى صدرها ،شاهدتك تعومين تحت الموج كعروس البحر ،وفي كل مرة كنت تغوصين أرقب والوقت يمر ثقيلاً، أحبس أنفاسي خائفاً، وبعد قليل تخرجين من الماء أجمل، أضحك على نفسي، كلما كررتِ الغوص، أكرر خوفي، يتلون وجهكِ تحت تأثير أشعة الشمس التي تنعكس على الماء لحظة الرحيل، بصراحة، الحزن يمنح وجهكِ جمالاً أخاذاً، تسمع و دقات قلبها تكاد تطير إليه، كأنها تحلق مع رف النورس الذي عبر فوقهما، نظرت حولها حائرة، تعالى صراخ الأطفال الراكضين خلف كرة الماء، و النساء اللواتي تركن أجسادهن لأشعة الشمس، طلباً للوّن البرونزي، بعض العائدين من الصيد، يحملون السلال المملوءة بالسمك، و هي تنظر إلى عينيه، من يشكل هذا الغروب من يرسم لوحته القدرية.. و يكتب على جبين الشمس لحظة الوداع آلاف الحكايات؟ من يدفع جسدينا إلى رقصة فرح مع ألحان المساء؟ من حدد مواعيدنا و أعارنا للزمن لنلتقي؟ قال:أنا بأمسِّ الحاجة إلى امرأة كل ما فيها يشبهك، وضعت يدها على فمه، أرجوك لا تكمل، أعرف تفاصيل ما تريد قوله،سمعته

مـن رجـال كثـر، و لكـنهم رحلـوا و لم يتركـوا لـي إلا الوجـع، وهـذا الجسد المتعب، تغـرقني اللهفـة إلى رجـل لا يـرغب بالـرحيل، تيبـست الكلمـات علـى شـفتيه، تابعت: هكـذا نلتقـي نكـتب على الرمل أسماءنا وبعد قليل نغادر الشاطئ ويمحـو الموج كل ما كتبناه، أيها الرجل.. من أين أتـيت لـتوقظ حكاياتـي، بـدا وجههـا مـشرقاً وهـي تـشم رائحـة البنفـسج وتـرتدي قميـصاً أزرق شـفافاً، كلماتـه العذبـة تنـساب كنـسمات طـرية، تـورق داخلـها، لم تـشعر مـن قـبل أن للكلمـات نغمـة خاصـة، و لم تكـن تعرف من الـرجال إلا الـصراخ المتعالـي و الأوامـر الـصارمة و الوجـوه المتجهمة، و أنفاسـهم الكـريهة حـين يمارسـون نزواتهم مع امـرأة صـارت زوجـة أو خليلة، غمغمـت: لكـن هـذا الرجل النحـيف الجسم الحـالم، كـأنـي خلقـت لـه، يـبدو لـي أنـه مخـتلف عـن الآخـرين، نظـرت إلى وجهـه، إنـني حـزينة إن افتقدتك قبل أن أتأكـد مـن مشاعركَ، ولكـن أخاف أن أظلمك معـي، أنـا امـرأة مللت مـن انتظار الأحلام، أحببت رجـلاً حتى العبادة و لكنه أرادني امرأة مسلوبة الإرادة، لا يـسمح لهـا حتـى بالتعـبير عـن مـشاعرها و هـي عاريـة في حـضنه، وحـده يحـق لـه التعـبير عـن رغبـته المكـبوتة

وأحاسيسه الجنونية، أحياناً بالضرب المبرح ومرة بالهجر، تركني ليرحل مع أول امرأة، حين كشف له الطبيب أنني عاقر، قال قبل أن يغادر أنت باردة وعاقر وأنا بحاجة لمن يرث أموالي، عانيت من الوحدة و الهجر كثيراً، ورحت أنتقم لنفسي من كل رجل يخدعه جمالي، لكنني مللت جلسات الليل و قصص العشق الزائف. صرت جسداً بلا ذاكرة، غارقة بهذه الأشياء التي أصبحت.. بلا معنى، لا يوجد في الحياة ما يغري، لا طفل و لا رجل، و مع هذا الإحساس الملول، وبهذه اللحظة لدي شعور اتجاهك غريب، لم آلفه من قبل، تمر كلماتك الطرية كالترياق بلسماً لجراحي، أشعلت لفافة تبغ، سحبت نفساً عميقاً، وهي تراقب جموع الزائرين يستعدون لمغادرة الشاطئ... لا أخفيك، أنت فرصة ذهبية لامرأة فاشلة و قبل أن تكمل قاطعها، لو تعلمين كم أنت جميلة و رقيقة. يا إلهي: استطاع هذا الرجل أن يغريها، مرة ثانية يلقي بها الهوى، بين يدي رجل فاجأها به البحر بلا موعد سابق، نسيت عذابها، عادت تبني أشكالاً من الرمل البليل، تضحك بمرح طفلة صغيرة، حلت ضفيرتها، ترك أصابعه تعبث في طيات شعرها، استيقظت عنده الرغبة المستسلمة لأن يقول

لها "أحبك" لكنه لم يستطع، خفض بصره من دون أن يقول شيئاً، استسلمت و تركته يمسح عن خديها دموعاً آن لها أن تتوقف، كانت لا تريد أن تستيقظ من هذا الحلم المفاجئ.. أمسكت بيده، قالا معاً، هيا إلى البحر، خلعا ملابسهما من جديد، وغاصا تحت موجة قادمة من الفرح قد لا تتكرر...

متاهات

"نمارس نقاءنا مع الوطن عندما تصبح المبادئ النبيلة سلوكاً وعندما تكون عيون حارس القانون مفتوحة"

ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة قال في حضور عدد كبير من العمال، قضايا المعمل الشائكة وحقوق العمال تشكل الحلقة الأساسية في زيادة الإنتاج، دائماً عليه تحمل مسؤولياته النقابية، حتى ولو كانت أكبر من موقعه في اللجنة، لكنه لم يخذل ناخبيه يوماً ولم يتخلَ عن أفكاره، فهو شديد الحرص على الالتزام، ليبقى في نظر الذين منحوه ثقتهم مدافعا عن حقوقهم أمام مجلس الإدارة، فيحيطونه بمحبة ورعاية، لم يتجاوز الثلاثين من العمر، يمتلك مواصفات الشخص المؤهل جسدياً

وفكرياً، من حيث دراسته للقوانين النافذة وحصوله على الشهادة الجامعية كمهندس، يتابع عمله على أرض الواقع، يبحث عن أدق التفاصيل، متواضعاً ومرناً في العلاقات الاجتماعية، في زمن تقاطعت فيه المصالح وتفشت ظاهرة النفاق الوظيفي، شديد الحرص على المصلحة العامة، استقبل في مكتبه مجموعة من العمال، الذين قدموا بعض المقترحات التي تخدم نجاح العمل،لن أكذب عليكم.. الإدارة ترفض أي تغير في مواصفات الإنتاج وترفض توزيع الأرباح بشكل عادل وفق الإنتاج، يدعي رئيس مجلس الإدارة أن هناك صرفيات مخفية تتحملها الإدارة، والعمال لا يعرفون عنها شيئاً، نظر إلى وجوه الملتفين حوله وتابع من الناحية القانونية المدير يتمتع بصلاحية التصرف من دون العودة إلى النقابة، كونه(آمر الصرف)، ولكن سأكون إلى جانبكم في الاجتماع القادم، توقف عن الكلام لحظة وتابع: حتى ولو خسرت وظيفتي، المهم أن لا يخذل الإنسان شرف مهنته،رتب الأوراق في مصنف وأسرع إلى مقابلة المدير، استقبلته السكرتيرة ساخرة: اليوم أوراقك كثيرة أستاذ عباس "

المدير في اجتماع "؟ غاضباً: اجتماعات، مؤتمرات.. لا يهم . نقر على الباب بأدب ودخل، ألقى تحية الصباح، لم يسمع جواباً، المدير غارقاً في جمال السيدة شيراز، ظن أن من فتح الباب السكرتيرة. ساقاه بين ساقي السيدة ويحتويها بشغف، قدم لها سيجاراً فاخراً.. وحياة هذه العيون الساحرة، هذا سيجار كوبي يستحق هاتين الشفتين الورديتين، وفي اللحظة التي أراد أن يشعل السيجار، تنحنح عباس. ارتبك، ترك السيجار على الطاولة، تجهم وجهه، قطب حاجبيه معنفاً: منذ متى وأنت هنا؟ ابتسم: من عند الشفتين سيدي، تنحنح وأشار للسيدة الأستاذ عباس... مسؤول مكتب العمل في اللجنة النقابية، وأشار نحوها، صاحبة مكتب تجاري كبير. واضح أستاذ. عليك أن تؤمن لها الأوراق المطلوبة.. لتكسب مناقصة المؤسسة . قاطعه: الطلبات تقدم إلى الديوان. ولو.. مدام شيراز تهمنا.. وفضائلها تغرقنا، بكل احترام تقدم ووضع على الطاولة مصنف أوراق، هذه طلبات العمال، وما يحتاجه استمرار العمل.. تتقاطع بشكل حاسم عما يجري على أرض الواقع. أشعل السيجار وقال: اسمع، أنا أعرف أنك مهندس

متحمس، وتحاول أن تجمع من حولك بعض العمال للفوز بعضوية النقابة، أدار ظهره وهو ينظر إلى وجه السيدة بشغف كهل، لدي تقارير تفيد أنك تجتمع مع الذين يجتمعون ويتبادلون بعض الأفكار المخالفة، " اشتراكية ومساواة.. وحرية وعدالة وصناديق انتخابات . الكلام بيننا.. والمدام ليست غريبة، بصراحة: أنا أدفع الكثير من المال.. كي يغمض الكبار عيونهم عن الشركة؟ ولن أدافع عن أفكارك.. انتبه لنفسك؟ وتأكد أن كل ما تفعله وما تفكر تحقيقه.. ليس طموح مهندس ناجح .. أنه مجرد متاهات، لن تجني إلا وجع الرأس والفقر أو السجن. قذف الأوراق لتتبعثر فوق الطاولة.. بتهكم: وهذه الأوراق التي تحملها لا تعنيني بشيء، أشعل السيجار للسيدة، بصراحة: حدد حصتكَ من قيمة أرباح المناقصات وغيرها بشكل واضح، أنا لا أهتم للمبررات العاطفية أو صلة القربى، المهم أن لا يصل احتجاج العمال ولا هذا الملف من الطلبات إلى الوزارة. تناول بعض الأوراق أطلق صفيراً حاداً، يا للهول.. كل هذه المبالغ صرفت باسم مجلس الإدارة، ألقى المصنف على الأرض وأخرج مصنفاً

لـونه أحمـر يحـتفظ بـه في درج مكتـبه، خـذ: اقـرأ هـذه الأوراق.. هـنا تـوجد الفـواتير الحقيقية التي تبرر صرف تلك الأمـوال الـتي تتهمونا فيها، يوجد كل شيء وهو مكتوب بدقة متناهية ومسؤولية تفاصيل صرف المبالغ الكبيرة، اقـرأ: (أوامـر صـرف ثمـن وجـبات طعـام للعمـال.. ودواء، وإقامة احتفالات عمالية كبيرة بمناسبات وطنية ودينية.. تابع وهـو ينفخ دخـان سيجاره في وجه المدام، أنت تعرف يا عباس.. الوجبات الغذائية الكاملة تكلف كثيراً ولا تنسَ ثمـن الثياب الـتي تمـنح للعمـال والإداريـين في بدايـة كـل فـصل،والدواء،و الأطـباء الـذين تـتعاقد الإدارة معهـم، ومعالجـة أبـناء العمـال ومـساعدة عـائلاتهم في المـدارس). كـاد أن يغمـى عليه ممـا سمعـه وقـرأه.. أيـن الطعـام وأيـن الـدواء وأيـن.... لا شـيء من كل هذا يتحقق للعمال؟!، منذ ثـلاث سـنوات وأنـا في هـذا المعمـل، لم أرَ أي شـيء من هذه الأمـور الـتي تذكـرها؟ ضـحك: وضـرب كفـه فـوق يـد المدام.. اسمعـي هـذا الرجل " مجنون رسمي "، الأمور مبررة علـى الـورق، كل شيء يمشي بنظام، الوزارة.. تهتم للخاتم الرسمـي والـورق. هـل تفهـم؟ فـواتير.. وأخـتام نحـن نطـبق

القانون (يا باش مهندس). انتفض كمن لدغته أفعى: تذكر ما أقوله جيداً يا حضرة المدير، هذه الأوراق سأحملها إلى الوزارة فور مغادرتي هذا المكتب ولن تخيفني اتهاماتك . هه.. هه : أذهب وبلط البحر. لن تخرج من هذه المتاهة، ولا تحشر نفسك في مسارات لا تستطيع الاستمرار فيها، ولن يتحقق من أوراقكَ شيئاً، كما أنك لا تملك دليلاً على عدم صدق هذه الفواتير وعدم تنفيذها أيضاً، لدينا من يشهد على تنفيذها، ناوله قائمة بأسماء العمال الذين استحقوا المساعدة، أنظر هذا توقيع كل واحد منهم وتوقيع عائلاتهم أيضاً، هنا في الجانب الأخر يوجد فواتير مصدقة من المستشفيات ومن الأطباء، كذلك من الجامعات وغيرها، تؤكد كل كلمة مكتوبة في هذه الأوراق،شعر أن المكتب على اتساعه يضيق، قبل أن يتكلم، أشار المدير بيده وقال: يمكنك أن تتصرف الآن، غداً في الاجتماع نناقش الأمور، ربما تغير أفكارك وتنضم إلينا، اعلم،وحدك من بين أعضاء اللجنة النقابية من يعارض، يعني لا شيء، صوت واحد مقابل الجميع،هذا يعني بالديمقراطية التي تدافع عنها... "

نحن الأغلبية"، وعليك أن تلتزم بقرار الأغلبية، وتذكر المهم أن يطبق الجميع قرار الوزارة، مؤكداً على وجود سجل في مكتب الدخول، نظام الدوام مقدس. ضحك.. وانهمرت دموعهُ... طبعاً هذا الأمر هو المهم، ويمكن أن نضع حراس يؤدن التحية الصباحية لحضرتك. أما: أموال المعمل.. وحق العمال.. والمصلحة العامة لا أحد يهتم، ولا لتنفيذ الخطة ولا للقوانين، كما قلت حضرتك كل شيء يتم على الورق. نحن نعيش في عالم من ورق، زمن العجائب... تمالك نفسه قبل أن يضربه بأي شيء أمامه. حين عاد إلى مكتبه شعر بالتعب، جلس على الكرسي ووضع يديه فوق رأسه، نظر من النافذة المطلة على مدخل المعمل، غمغم وقد غص بالدمع، والله لا أصدق أن هذا المدير.. هو الأستاذ سامي المحمود، رحمة الله على والده، كان رجلاً أميناً صادقاً، يمضي يومه وراء" فدان البقر" يحرث أرضه ويجمع أوراق التبغ، يُعلقها بواسطة حبل طويل بين أغصان الشجر، وكل ما يجنيه من ثمن الموسم يرسله إلى ابنه من أجل أن يتابع تحصيله العلمي.. لقد خلع جلده؟. وضع يديه على الطاولة وانحنى فوقها وكأنه يريد

أن ينام، تبادلا قبلاً حارة بعد أن أعطته ظرفاً متخماً بالمال وقالت: لو تسمح لي بزيارته.. ربما أستطيع تغيير رأيه، ضحك.. جربي حظك. بخطوات ثابتة مشت في الممر المؤدي إلى مكتبه، رائحة عطرها ملأت الممر، اندفع الموظفون متسائلين.. عن سر هذه المرأة التي تفوح عطراً. نقرت بأصابعها على الباب ودخلت، لم يشعر بوجودها، غارقاً في النوم، مسحت بيدها على رأسه، انتفض كمن لسعته أفعى، قالت وهي غارقة بالضحك ما بك، خرجت الكلمات من فمه متقطعة عفواً مدام تفضلي، فتهمهم: مع أني مشغولة جداً ولكن لا مانع أن نتحدث قليلاً، عضت على شفتها السفلى بمكر وإذا اتفقنا لنا لقاء في مكان آخر، مدت يدها إلى الحقيبة وأخرجت بطاقة ملونة... هذه بطاقة فيها أرقام الهواتف التي تخصني، عندما تقرر أن نتعاون اتصل.. وتابعت ربما أجد لك عملاً أفضل تستطيع أن تضمن لنفسك مستقبلاً جيداً، تابعت وهي تنظر إليه بشوق أنثى ... نحن نقدر الذين يهتمون بعملهم ولقد تبين لي أنك مهندس نشيط ويمكن الاعتماد على قدراتك العلمية والإدارية، لكنه ظل صامتاً

كالأبله، لا تستغرب أنت تعجبني، ربما كنت حاداً مع سامي ولكن ستجد عندي كل ما يرضيك، وربما بعد أن نلتقي وتسمع الكلام.. تصبح أنت المدير. شيء في داخلها يدفعها لتتوسل إليه اجتاحتها رغبة أن تضمه إلى أملاكها. شعر أنه أُخذ على حين غرة، عفواً مدام.. سامي ابن قريتي وأنا أعرفه جيداً، لكن على ما يبدو أخذته الدنيا في متاهاتها.قاطعته... اسمع أنت المهم نلت إعجابي وأريد أن أحارب الآخرين بخبرتك، لامست بطراوة يدها خده.. مررت عطر أصابعها على شفتيه.. لا تنسَ أنا بانتظار زيارتك، خرجت وتركت بطاقتها وعطرها في المكان، وبقي يفكر عليه أن يختار، الحيرة تدفع الإنسان أحياناً إلى الأمام.. وأحياناً كثيرة تدفعه إلى الغرق، معقول أن يتخلى ليس فقط عن واجبه وعن أهله.. بل عليه حتى أن يلتحق بالركب الجديد، أن يتحول إلى وحش.. يتنكر لأقرب الناس إليه، ولا يفكر إلا بالمال والجنس، جمع بعض الأوراق الضرورية وضعها ضمن مصنف أنيق، فتح النافذة أراد أن يغير هواء المكتب، العطر النسائي لا يناسبه، من دون أن ينظر إلى بطاقتها مد خطواته الواثقة

باتجاه الوزارة، لا يدري كيف يتقرر مصيره؟ كل ذلك يعيده في خياله وهو يجهز حقيبته ليرحل عن هذه المدينة، لن ينسى أبداً تلك الوجوه التي قابلها في الوزارة.. ولا النصائح التي وجهها إليه مدير مكتب العمال، كان الخيار صعباً.. لكنه لم يتراجع عن موقفه ضارباً بإغراء المسؤول والسيدة عرض الحائط. خرج ووجهه للريح: صحيح نحن في زمن المتاهات، ولكن لن أخسر نفسي؟...

زهر الليمون

إلى: مريم حفيدتي.

تزهـر أشـجار اللـيمون، تلمـع أزهارهـا تحـت أشـعة الـشمس زاهـية، في صـباح طـري مـن أيـام الـصيف جـاءت مـريم، تخـربش علـى نـوافذ البـيت، كـنت أقلـع الأعـشاب الـضارة مـن حول الأشجار، تحمل بيديها الصغيرتين فنجان القهـوة، مسحت العـرق المتصبب عـن جبهتي، كـنت فرحاً بهـا، وقـدماها تغوصـان في تراب الحديقة، وتحمل بيديها " المنكوش " راحت تحفـر وتقفـز حـول الـشجرة كـالأرنـب، تكـاد تطـير مـن الفـرح، كـأنهـا فراشـة بـلا جـناحين، تحـوم... ولا تعطـي فـرحتها لأحـد، الـشمس ترسـل أشـعتها الذهبـية مـن خلـف غـيمات بـيض مـشتتة، تنـشر الـضوء والـدفء علـى الحاكـورة الـتي تـسور البـيت، ذهـبت مـريم

تغسل يديها من بقايا التراب، ووقفت أنا على شرفة تنفتح للمدى وللبحر، أراقب السفن العابرة، أشرب فنجان القهوة وحيداً تضيق الأمكنة، شعور بالوحدة يباغتني، وأصبحت أخاف الوحدة، لا شيء إلا زقزقة العصافير، وصوت غناء يأتي من بعيد، فجأة يهز النسيم زهر الليمون، تنتشر رائحته في المكان، نسمات باردة ترافق رحيل الشمس، يدخل الليل إلى الشرفة، تتلألأ النجوم في هذا الفضاء اللامتناهي، أسمع وقع خطواتها في الممر، ينفتح الباب على ضحكتها، تركض مريم.. تقفز إلى صدري، يفتر ثغرها الوردي عن ضحكة عذبة، كأنها تنبعث من بين ورقتي أقحوان، مساء الخير يا جدي.. مساء الدنيا، مساء العطر، تلوذ بي، يتكور جسدها الناعم بين ذراعي، تردد أغنياتها الحلوة، ضممتها إلى صدري، شممت رائحتها، يا مساء الفرح، صغيرة، ولكنها كما يقولون: هي أكبر من عمرها، تجلس بين يدي تحدثني، عن البحر، عن الأشجار والعصافير، عن أوراقي وكتبي وطاولتي، تسألني عن الشمس، والنافذة المطرزة بزهر الليمون، تسقط لفافة التبغ من بين أصابعي المرتعشة، تلتقطها بأصابعها الصغيرة الناعمة، تلقيها في سلة المهملات، تنظر إلى وجهي قائلة: الدخان يضرك يا

جـدي، وأنـا لا أحـب أن أراك مريـضاً، تـتابع نـصائحها البريئة قائلة: شاهدت في التلفاز رجلاً عجوزاً كان يسعل بعناء وألم، وعيناه محمرتان، وكان الطبيب يفحص له صدره، لهذا طلبت من أمي أن تصحبني إليك، خفت عليك كثيراً، مالت على جبهتي قبلتها ،وقالت: أنت غالٍ علينا، أخذتها إلى صدري، كنت أستمع إلى مريم بعشق ولهفة، وأنـا لا أصـدق أن طفلـة بعمـرها تـتحدث معـي بهـذه الكلمات، عن أضرار التدخين، وعن خوفها وحبها، في الصباح، كان الفرح يرقص على شفتيها، وهي في حضن أمها بجدائل شعرها الخرنوبي، حملتها بين ذراعي إلى الحاكورة، ورحنا نركض معا تحت أشجار الليمون، نركض وراء الفراشات، كأننا صديقان أو عشيقان، أنا ألملم بقايا العمر حيث تعبر بي السنون أريد أن أحتويها بعيني، أكرر طفولتي الهاربة من خلال طفولتها، وكانت مـريم تمـد خطـواتها إلى الحـياة الجديـدة تحـت ظـلال الليمون...

حنين

خلعت رداءها المقصب بخيوط الحرير، بدت كدودة قز خارجة من شرنقتها، تنفست بعمق، ما أصعب أن يشعر المرء أنه مقيد، تمنت أن تظهر أنوثتها بوجوده ليراها من دون تحفظ، خيالها يحملها إليه، يقف أمامها ينظر بعينين متلهفتين لجمالها، خدر لذيذ سرى في جسدها، وردتان نديتان من البنفسج تفتحتا على شرفات صدرها، احتواها بين ذراعيه فرحاً، وقفا خلف النافذة المفتوحة على الليل، تطلعت إلى النجوم، أترى تلك النجمة كم هي جميلة حين تتراقص بوميضها في هذا السواد، همس في أذنها.. أنتِ خيالية أكثر من حدود الطبيعة، مدت ذراعيها إلى النجوم، تتمنى أن تطالها، أن تحلق في هذا الفضاء اللامتناهي، تلتف حولها عشرات النجوم، تكورت على

نفسها خوفاً من أن تسرق حلمها، بدت كطائر خيالي يشع من جناحيه وميض، تحلق بين كواكب المجرة، أربكها هذا الخيال، إذا بقيت تحلم سيقودها الحلم إلى الجنون، طفقت ترقص، استوحتها ذاكرتها، شلال من الفرح المتخيل خيم على المكان، هكذا كانت.. حين أتته تهفهف كبياض الثلج، قبل أن تشوهها الإصباغ الحديثة، النافذة مفتوحة على المطر، تغتسل من كل مساحيق الدنيا، همس الجنون لصباها، تفتحت كالأرجوان، تمردت على محبرة تضج بالحكايا، ألقت عباءتها بعيداً.. ضج جسدها بالبياض، بلا مقدمات انسكب السؤال على شفتيه، لم تسمع، هائمة مع أحلامها، هزها مرات عديدة، لم تستجب وراحت ترنم بلغة العشاق وتراتيل الفرح الموشى بزهر البنفسج، تبدين في هذا القميص الشفاف ترتدين البحر، دفعتها أنوثتها إلى صدره، خلعت ثيابها المطرزة بصوته وكلماته ونظرات عينيه الحائرتين، نامت على وسادة الليل، تصغي إلى حكاياته القديمة عن الشاطر حسن.. وعروس البحر التي أعجبت بصيادٍ فقير، وكيف كانت تخرج.. كلما جاء إلى الشاطئ، تمنحه لؤلؤه.. أو ابتسامة، اتهموه بالجنون، هي امرأة غنوج، تحفظ حكايات قصص العشق والبحارة، تعيش نصف عمرها في عالم متخيل، الليلة

باردة ومقمرة، وشفتاها متقدتان كجمر، تحلم أنها تغني وصوتها يقارب صوت فيروز، ينبع من روحها، وتعلق صوراً وتذكارات على جدران غرفتها الرطبة، بحار أنت يا يوسف، أم أنك مجرد حلم؟ تمشي على ضفة النهر وقد تاهت بكَ الدروب، لا شيء إلا الصمت، قارب صيد يقترب، تمد خطواتها بهدوء والرمل ينكمش خجلاً تحت قدميها، عمريت.. المتكئة على البحر، خرجت من التاريخ لتستمع بإصغاء لأغانيها القديمة، لا تستطيع أن تقاوم رغبة جسدها إلى الماء المالح، رغبة تشدها، تذكرت ملاحظات أستاذ التاريخ، عن أسرار السندباد البحري، وكلماته عن أهمية "عمريت السياحية"، قالت: عجيبة هي الأقدار التي تجمع وتفرق كيفما تشاء، اذكريني كلما مرت بكِ الشمس قبل الغروب، لم يزل يذكر لقاءه الأول تحت شجرة الزيزفون، كنا نحكي تحت ظلالها عن عذابنا وهمومنا وأفراحنا، ونحكي عن الغربة، أتذكر كيف كتبنا أسماءنا وبقيت شاهداً علينا، غطت وجهها بكفيها المرتعشين، حزينة تبكي قدرها.. أنينا ينبع من صدرها التعب، كلنا خلقنا من ماء وطين، شعرت أن روحها تتسرب من بين أصابع يديها، وطيفه يمر فوقها وهي تناجيه.. همس الجنون للعشاق فتابوا، كل شيء من ماء وطين، إلا أنت: أحلام... وحقيبة سفر، أغرتك حورية

البحـر، لتتركني أعـيش مـع الذكـريات، كـيف تـسلل طيفه عبر مسامات جلدها قبل الفجـر، حين رأته قادماً وقبل أن يتكلم، خلعت ألوان ثوبها المطرز بالماضي، ألقته على سنين الغربة وتفاصيل الغياب ودوران الأيام والشهور، رشـته بكـل أنـواع العطـور ونثـر فـوق جـسدها أزهـار البنفسج، كل ذلك الخيال داهمها وهي عائدة تجر خيبتها إلى بيـتها القـديم، فـتحت الـباب أصـدر صـريراً أخافهـا.. أشعلت النور، وضعت حقيبتها جانباً، وراحت تزيل الغبار وبقايا خيوط العنكبوت المعشش في أنحاء البيت؟، لم تزل في الذاكـرة، مقيدة إلى نافذة متروكة للزمن، أشعلت نار شـوقها شموعاً، تقـرأ كلماته المكتوبة، تذكرت كيف تلاقـيا بلهفـة الحـنين، وكـيف منحـته رشـفة مـن خمـر ثغـرها، لأول مـرة أمـنح قـبلة لـرجل.. تـركت شـفتيها في شـفتيه، لا تتركني، لا أستطيع مقاومة لهفتي إليك، قبضة من الـريح، تاهت كلماتهـا ومحبرتها فارغـة، أعبر مدارات الـروح، لم تـزل خلـف بيتـنا الطـيني المهجـور قصـصنا وحكاياتنا المخبأة على كتف التنور وصوت فيروز مطرز في ذاكـرتنا، أخـاف عليك مـن سـحر عـيون بـنات الليل، كـل شـيء يـرحل، لم يبقَ إلا صوتك يأتي مع نسيم الغروب وألوان قوس قزح...

فرح لم يتم

كل شيء جاهز.. فستان العرس والذهب وصالة الفرح، الضيوف أخذوا أماكنهم المخصصة، وانطلقت الأغاني الشعبية وضجيج آلات موسيقية، والصبايا يتبادلن أدوار الرقص والضحكات وكل واحدة تتمنى أن تكون العروس، نهى قلقة، شيء ما يقبض على صدرها، ترتعش لأي حركة مفاجئة، رفعت الستارة عن نافذة غرفتها وأطلت على الحي،أخذتها ذاكرتها بعيداً، يا لها من أيام، ابتسمت كأنها تسمع رنين صوته وهي تركض بتحدٍ، الحق بي إذا استطعت، حاول التقاط أنفاسه، سألحق بك وأنال قبلة، تقفز كغزالة وتتمنع وهي راغبة،مضت الأيام وأصبحت القبلات المسروقة مدار أحلامها، يجلسان تحت شجرة النارنج لامست يده المرتعشة صدرها، أجفل

أنوثتها، دعيني ألملم هذا الحزن عن شفتيك، تاهت مفردات الكلمات وهو ينظر في عينيها العسليتين، يحلقان كعصفورين بللهما الماء، ولأول مرة يكتشف بياض نهدين مكورين ومتيقظين بيده المتسللة، شعرت برغبة إلى النوم، تنبهت وانتفضت كأرنب أجفله صياد، أسرعت من دون أن تلتفت ورائها. خافت أن يسرق أحلامها، دخلت إلى غرفتها انسلت تحت الغطاء وغرقت بنوم عميق، مضى أسبوع.. أسبوعان، ومرت الأيام، وهي ترفض أن تلتقيه أو ترد على اتصالاته، ولم تفتح نافذة غرفتها لتراقبه كعادتها، حتى انتهى العام الدراسي، وأعلن عن نتائج الثانوية العامة، اسمها من الأوائل الناجحات في الحي، أصبح من حقها الذهاب إلى الجامعة، ستخرج من عالم مغلق على الممنوعات، إلى دنيا مفتوحة على كل شيء، هذه أول الأحلام، في كلية الآداب قسم " اللغة الانكليزية " رأته واقفاً كمتسول يتكئ على السور، ابتسم ومد يده متصنعاً ارتعاشة أضحكتها، يردد: من مال الله كلمة للبائس العاشق، ضحكت وهي تتمنى أن تنشر عطرها حوله أن تضمه إلى صدرها. سامحيني: كل ذنبي أني سرقت قبلة يا سيدتي. قبلة يا ناكر الجميل، كدت تعصر نهدي كرمانة ناضجة، لم أشفَ بعد، كلية الطب البشري لا تبتعد كثيراً، طفق فوقهما الفرح

وقد عاد بردى لجريانه وعادت العصافير وفتحت أزرار الورد الشامي، وتوالت اللقاءات ، كانت صديقة عمرها سمر تصور ها وهي تتبادل القبلات والابتسامات والوشوشة مع جمال، بأمر من شقيقها ناجي، قائلاً: كي تتم خطوبتنا بفرح.. و تستمر راقبي نهى وجمال، بلا تردد: أمرك مطاع . ولكن كل الدنيا تعرف أنهما عاشقان،وأن والدك من شدة حبه " للرئيس الراحل جمال عبد الناصر"وافق على خطوبتهما.اسمعي لي مآرب يحقق لنا الكثير.سأعرض عليها حصتها مقابل زواجها منه، الطمع أعماه ليرتكب المعاصي، متعال ولا يرضى بما قسم الله، في صباح مشرق وهي تستعد للذهاب إلى أخر يوم امتحاني، سمعت نقرات على باب غرفتها ودخل ناجي، ومن دون مقدمات عرض عليها صورهما ، لم تنكر،وماذا في ذلك أنت، وأهلي والحي جميعاً يعرفون أننا خطيبان،في نهاية العام يتخرج طبيباً وعيادته جاهزة، حاول أن يكسب ودها.. وأحلامك أن تتابعي تحصيلك العلمي. لا تهتم وعدني أن يساعدني، ولكي تطمئن أكثر سأتنازل عن حصتي من ورث والديّ،وأطمئن لن نمد يدنا إليك،أحمر خجلاً لقد أصابته بالصميم،حاول أن يلجم غضبه، كي لا تجري الرياح بما لا تشتهي سفن طمعه بميراث العائلة، بيت واسع يمتاز بفن معماري جميل،تتوسطه بحرة ومن

حولها أحواض الورد والأشجار، وإطلالة على ضفة النهر، ومحل " سمانة ". على أي حال لننتظر نهاية العام الدراسي ونتفق، كان نجاحها باهراً وتخرج جمال، ولم يبق سوى الاتفاق على يوم الفرح، نهضت من سريرها مرعوبة صوت صراخ والدتها.. مات الوالد الذي يشكل سنداً في مواجهة طمع أخيها، انقضت أيام العزاء، جلس بجانبها تذكري اتفاقنا، نظرت إليه مستغربة وأمي؟ قطب حاجبيه خذيها معك، أنا من حقي العيش مع سمر بحرية، رمقته بنظرة ازدراء.. ولكنها تذكرت حديثها مع حبيبها: لا تمنحيه فرصة كي يخرب فرحتنا.. وافقي على شروطه. ناجي قلبه من حجر ومال، يبيع كل شيء من أجل مصلحته، ومن جهتي أعتبر أمك مكان والدتي " رحمها الله ". جاء موعد الزفاف.. لقد اكتملت فرحتها أخيراً ترتدي ثوب الأبيض، كان شرطها الوحيد أن تزف من بيت أهلها، بعد تردد وافق ناجي، وصلت سيارة العريس وتعالت الزغاريد، أسرعت إلى الصالون لترافقها أمها، ماما.. لم ترد، كل شيء فيها ساكن، وعينان جامدتان تنظران إلى الفضاء، صرخت يا إلهي: قتلوا أمي؟ قتلها طمع ناجي؟لا شيء يشبعه.. لا، وسقطت مغشياً عليها، نظر جمال إلى ناجي بغضب، الآن تستطيع أن تأخذ كل شيء.

ذاكرة الماء

الحياة هنا لا تعرف الهدوء، سكونها يتفتق عن عناد لا يعرف سرّ حركتها أحد، المد والجذر برزخان من ملح وماء.. كل شيء في ذاكرة الماء. نظر إلى الفضاء، يبحث عن حبل سري يربطه بجدلية الماء، مد خطواته على رمل الشاطئ .. وموج البحر يلاطم صمت نتوء صخري، ذاكرته تعبة مشحونة بالحنين إلى صوت فيروز، تسأله بابتسامة فاترة: كم تحب فيروز " كل شيء فيها وبألحانها وكلماتها وصوتها يشدني إلى الحياة والدفء " طيف يعبر زرقة السماء، يمر فوق المقابر.. خيالات تعبر بلا اتجاه.. ووجهه كوجه بحار عجوز هجر البحر، كل شاطئ يقابله شاطئ.. راقب طائر نورس فاشل يفتش عن

سمكة متعبة أو هاربة من شبكة صياد على الطرف الآخر، من هنا بدأت أسئلة الكون، يا لزرقة السماء وشالات النساء اللواتي يركضن حافيات على الرمل يتقاذفن كرة تهرب إلى الماء، يضحكن ويتبادلن فناجين القهوة والآراكيل.. ويهمسن بعض الكلمات عن شوقهن، انتظر لعلّ أحداهن ترق لحاله وتمنحنه رشفة قهوة، يا لحرية الماء والرمل وهذا الفضاء اللامتناهي، بعيداً عن اختناق المدن والعادات المتوغلة في سواد العباءات، البحر يلغي المسافات بين الزائرين، ابتسامات ساحرة لشفتين تتفتقان عن أقحوان يقطر ندى، ينسج على هفهفات الحلم والخيال رؤى لقصص لا تنتهي عن البحر. بعيداً عن أقنعه.. زيف وخداع المدن، ليكتشف خلف كل قناع.. قناع، وابتسامات كاذبة. يعبره عطر نسائي ينعش وجعه.. لا يرتوي، قلق وهو يفتش عن صاحبة العطر، امرأة تركض كراقصة خلف كرة صغيرة تبلل قدميها بالماء، لاحظت دهشته.. تبتسم، فيخضر الرمل ويزهر البنفسج.. ويهدأ صخب الموج، وعطشه لا يرويه نظرة ولا ابتسامة، تخيلها... تأتي بحفنة ماء، هرب إلى الموج، تضحك هامسة.. أتخاف!.. كل ما حوله مخيف، يخاف حورية البحر وسر الحكايات القديمة وسر أسرار بحار غادر ولم يرجع،

هناك من سافر وتركك تنتظر! شيء ما يمر كشريط سينمائي.. لم تزل رسائلها محبرة بالدموع ولهفة الشوق.. لا شيء يغري، تجاوزته السنون، إنه متروك للبحر والصمت. ينتظر نساء تعطرن بماء الياسمين يتهامسن عن البياض والتجاعيد وارتعاش يديه، رمت الكرة إلى الماء.. أنت تبالغ لا يبدو أنك تجاوزت الستين، غمغم: ربما أكثر، وحيداً ينام النهار على كتف البحر، وتغفو في الضحى مراكب الصيادين، لا شيء سوى شعور بخدر جميل لامرأة تجاوزت ذاتها.. لتأتيه بابتسامة وفنجان قهوة.. رائحة الهيل تسبقها، أمسكت بيده.. سحبته للركض في الماء، كم من السنين مرّت وهما يأتيان إلى البحر، يجلسان على الصخرة ذاتها، يرتشفان القهوة بصمت، هاربان من وحشة المدن وغارقان في بحر الشوق، لم تهزم محبتهما الأقنعة.. ولا السنين، متعب الحنين للماضي، أينما التفت يجد صورتها في الماء، يا لذاكرة الماء التي أتعبته، سيظل يرقب البحر ويبني على أهداب الرؤى منارة الأحلام التي تومض من بعيد.

أشياء عن البحر والحب

لم تصدق أشجان عينيها عندما رأته برفقة صديقتها هناء، أحست بخدر لذيذ بدأ بشفتيها الرقيقتين كتنميل محبب وسرى على شكل دفقات من الدفء في جميع أنحاء جسدها، شيء لا تستطيع وصفه وقد امتلأت حيوية، ألقى تحية المساء بابتسامة عريضة ومد خطواته الواثقة في الممر المؤدي إلى الشرفة المطلة على البحر، كلماته كعزف ناي، نظراته وابتسامته تشعرها بالطمأنينة، تأملته وهو يتحدث مع الحاضرين، معقول أن يتطابق الواقع مع الحلم، لا.. مازالت تحلم، هي التي ترفض وتحارب قارئات الفنجان والمنجمين الذين يلعبون بعقول النساء المندفعات.. لكشف المستور ومعرفة ما

ينتظرهن.. أو العبث بما بين الجنة والنار، وتعتبره مجرد كذب وشعوذة، كيف تقتنع أن حديثاً عابراً مع هناء.. يتحقق هكذا كأنه هو! لا أبداً ليس من المعقول.. هكذا تخيلته، بقامته المديدة، وعينيه المفروشتين باخضرار موشى بمسحة حزن مغرية، ووجه يفيض نضارة، تحدثت هناء عن تجربته في الحياة قائلة: علي، هادئ وطموح، اشتغل على نفسه كثيراً.. سهر الليالي الطوال يقرأ ويبحث في صفحات الكتب.. كان يقتر على نفسه المصروف من أجل شراء رواية أو مجموعة قصصية، أو كتاب تاريخ أو فلسفة، يغدق على الآخرين محبته من دون مقابل، كما يقال كان يجوع من أجل توفير ثمن كتاب أو بطاقة للدخول إلى المسرح لمتابعة فكرة أو مقولة تعجبه، جاء من القرية مفعماً بمشاعر دافقة، جعلته نافراً بعض الشيء من ازدحام المدن وعادات أهلها، هناء تتكلم وهي ترسم صورته في خيالها، بياض مفرق شعره الذي شكل لها حافزاً للتقرب، يبدو أن صديقتها خططت لهذه السهرة ببراعة الأنثى، راقبت حركة شفتيه وإيماءات يديه ونظراته التي جعلتها أسيرته، وخاصة محاولة خالد، الذي يدير مؤسسة حكومية كبيرة.. يتصرف كأنه مالكها بثيابه المستوردة وربطة عنق من الحرير.. وسيجاره

الكوبي، وسخاءه.. لا يدفع من جيبه. حاول أن يقاطعه ويبدي معارضته لأي فكرة يطرحها، مدعياً أنها مجرد أراء قابلة للاختلاف، وفي الواقع، خالد، يريد أن يثبت تفوقه بحضور هناء التي يعشقها، خوفاً أن يميل قلبها لعلي ويخرجه من حياتها، أي رأي أو فكرة يحاوره محاولاً أن يلبسه ثوب الخوف. وهي التي أحبت علياً حتى الثمالة.. ولكنها كانت تعلم يقيناً أنه لا يميل إليها إلا كصديقة غالية، يحضر إلى بيتها في الأمسيات التي تقيمها في نهاية كل شهر لمجموعة من الأصدقاء، يتبادلون الآراء.. وأحياناً يقرأ علي قصة جديدة. جاءت تحمل صينية الضيافة بثوبها النيلي الأزرق الطويل، كحورية خارجة من موجة بحرية، رمقته بنظراتها المتلهفة، سمعته يقول: ليست الرغبات دائماً تعبر عن داخل المرأة، ربما تحولت إلى أنانية قاتلة.. علينا أن نحكم العقل، رد خالد: العقل يلغي العاطفة ويدمرها. ابتسم لتعقلن العاطفة فتجري الأمور في مساراتها الصحيحة. خالد: المرأة تحتاج إلى عاطفة الرجل وماله.. وليس إلى عقله؟. ولكن الحياة ليست كلها عاطفة ومالاً.. وإلا يتسلل الملل ويخربها، تابع خالد: بالمال تشتري كل شيء. قاطعه: إلا الإنسان. صمت عام. وزعت التبولة والمكسرات، سكبت النبيذ في كؤوس شفافة، تبادلوا

نخب اللقاء الأول، ابتسمت أشجان وهي تلاحقه بنظراتها، بهدوء الواثق مد يده إلى حقيبته السوداء، أخرج أعداداً من كتاب صغير الحجم، طبع على الغلاف الخارجي صورة امرأة تجلس على مقعد مريح، خلف نافذة مطلة على فضاء أخضر، ترتدي ثوباً أزرق شفافاً، كم كانت اللوحة تشبهها، وبدأ يوزع ويكتب الأسماء على الصفحة الأولى التي تلي الغلاف، قالت هناء وهي تبتسم: صديقنا علي، أصدر مجموعة قصص جديدة سيقدمها في هذه السهرة الجميلة. انطلقت منها آه كادت تفضح مشاعرها، أريد أن تكتب لي إهداء. نظر في وجهها وكتب: الآنسة أشجان، للبحر أسراره ولنا وللآخرين، ولكن المحبة تبقى سر أسرار الحياة.. مع المودة علي. سألته عن معنى عنوان مجموعته القصصية (أشياء عن البحر والحب)، مرتبكاً وقد شعر أنها تحتويه بنظراتها، قال: هناك بعد مخفي في المشاعر التي يعانيها كل واحد منا.. وحين لا يجد من يبوح له بمكنون داخله.. يحكي قصته للبحر، الذي يحوي أسرار البحارة والعاشقين والراحلين، وهموم وأغاني الصيادين. يتحدث وهي تحلم أن تأخذه بخيالها بعيداً إلى حيث لا أحد، تذكرته وهي تجلس على الرمل وساقيها تغوص في الماء، وتقرأ قصصه

أشياء عن البحر والحب.. كانا ثنائياً جميلاً في السهرات وفي اللقاءات.. يمشيان على الشاطئ معاً، يكتبان معاً ويشربان معاً، مرات، ليفهموه أن الحياة بالمحبة أجمل، يرقصان معاً في المساءات كلٍ يريد أن يدخل الآخر في صدره، وتأخذهما الموسيقا بعيداً في رحلة من الأحلام: (لو حكينا يا حبيبي نبتدي منين الحكايا...)، ومن دون مقدمات افترقا. لا يمكن أن يكملا المشوار.. أهله رفضوها، قال والده حاسماً: أشجان بنت عائلة ميسورة تعيش في المدينة، لن تتخلى عن أهلها وتعيش معك في قرية غارقة بالفقر.. وأبوها يدعي أنه ينتمي إلى حزب ينادي بالعدل الاجتماعي، وهو يملك أرضاً ومصالح عقارية وسيارته لا يركب مثلها أكبر المسؤولين في البلد. قال: ليس من الضروري أن يكون الاشتراكيون فقراء؟. حاول أن يدافع عن حبه.. أو يشرح وجهة نظره لأهله لكن من دون فائدة. وأشجان أقامت العائلة عليها الحد، قال والدها: علي شاب من الريف ولا يناسب مجتمع المدينة، ليس لديه طموح ولا يملك مقومات الأسرة.. لا بيت ولا سيارة، يعمل كي يأكل، ويتسلى ببعض الكتابات الخيالية التي لا تسد رمقه.. ووالده ينتمي إلى حزب قومي لا تتسع له حدود.. يكره المال وأهله، الناس مقامات، لن

تستطيعي التأقلم مع العيش في الريف. هكذا هي المدن والمذاهب والإيديولوجيات.. تواجهه دائماً.. سافر إلى العاصمة يبحث عن عمل جديد، لعله ينساها. كتبَ لها الكثير عن أشواقه وأنه لن يتخلى عنها.. وكتبت له عن تلهفات قلبها، وعن العريس الذي بعمر والدها.. جاء يحمل مهرها في حقيبة سفر، حاولا كثيراً.. وفي النهاية اتفقا على الفراق. عضت على شفتها السفلى، فاضت دموعها، تركتها تتساقط كحبات اللؤلؤ، يا له من زمن لم يتحقق حلمهما، وفي كل غروب تأتي إلى البحر تقص حكايات.. ليست للبوح.

الفهرس

إهداء.. 5
الضائع..... 7
امرأة من ندى..... 15
قبل أن تجف دموعها..... 25
لو تأخذني إليك 35
الخريف 45
قمر أخضر في سماء غزة 49
الوهم..... 55
ورقة طلاق..... 61
عوسج جنوبي..... 69
امرأة ناضجة..... 75
عام آخر يرحل 81
لقاء عابر..... 85
متاهات 93
زهر الليمون 103
حنين 107

فرح لم يتم.....111
ذاكرة الماء 115
أشياء عن البحر والحب.....119